شباب خالد

تأليف

أحمد قاسم جوده

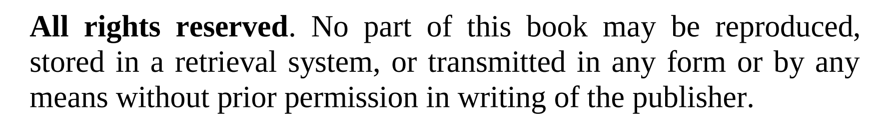
الكتاب: شباب خالد

الكاتب: أحمد قاسم جوده

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com



All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

جوده ، أحمد قاسم
شباب خالد/ أحمد قاسم جوده
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٥١ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٥ – ٢٤٥ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٥٢١ / ٢٠٢١

شباب خالد



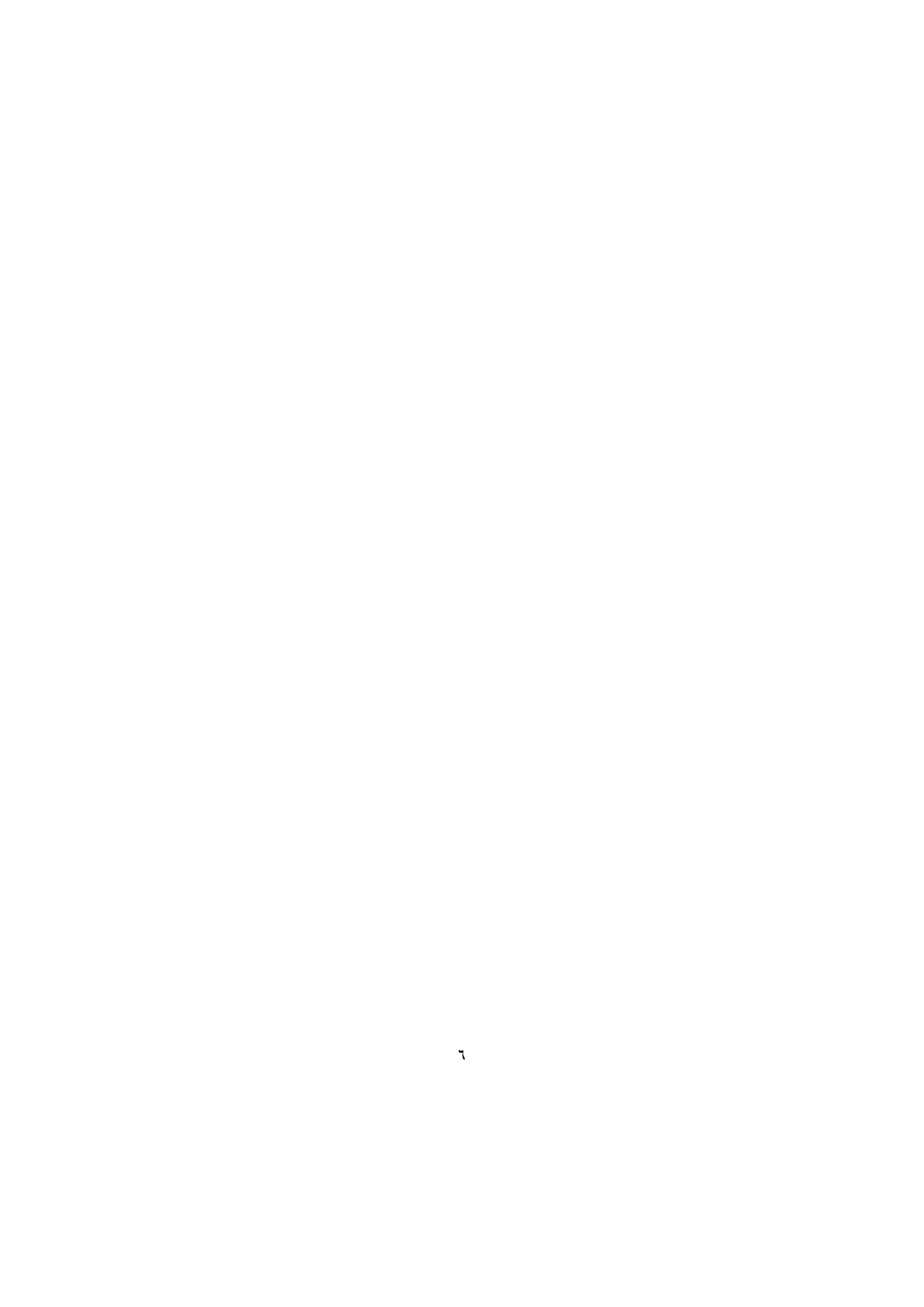


هذا الكتاب

الشباب كالحب لا وطن له، بل هو تاج البشرية المشترك، وقد عمدت في هذه الفصول إلى الحديث عن طائفة من أخلد شباب الأمم، على اختلاف الأفاق والأجناس، والأزمان؛ فمنهم رجل السياسة، ورجل الأدب، وفتاة الحرب – جان دارك– التي اتخذت ملابس الرجال، وقد تفاوت بينهم الزمن، من عهد الحضارة الإغريقية القديمة إلى دنيا السياسة المصرية في مطلع القرن العشرين..

وقد عاد المؤلف – رحمه الله– إلى بعض فصوله بالتعديل والتصحيح، ولعل في ظهور هذه الطبعة الجديدة ما يحقق رغبات الذين تفضلوا، فأعربوا عن رغبتهم في إعادة طبع الفصول التي نشرت أول مرة بعنوان "نوابغ الشباب" .

أحمد قاسم جوده



الإسكندر الأكبر.. الشاب المغامر

ما زال اسم الإسكندر المقدوني يقترن في أذهان عدد كبير من المسلمين لعله الأغلبية الساحقة باسم (ذي القرنين) الذي جاء ذكره في القرآن الكريم فيأبى كثيرون إلا أن يحاولوا إثبات أن الإسكندر المقدوني هو ذي القرنين نفسه، ولهذا يحيطونه بشيء من القداسة والتكريم، ومن الغريب أن المسلمين لا ينفردون دون أهل الكتاب بإلقاء هذا الضوء من القداسة الدينية على شخصية الإسكندر.

فإن الأستاذ آرثر ويجال عالم الآثار المعروف بمؤلفاته في التاريخ القديم يروي في مقدمة كتابه عن الإسكندر أن أساطير اليهود وقصصهم الشعبية تقول أن الإسكندر كان خادم يهوذا صاحب عرش سليمان وأحد العلماء الروحانيين الذين جاءت بهم نبوءة دانيال، بينما كانت بعض الكنائس المسيحية تتجاوز عن منطق التاريخ وتنظم الإسكندر في عداد القديسين المسيحيين.

ومما لا يحتمل الشك الأكبر في انتشار هذه الخرافة بين أهل الأديان الثلاثة هو ذلك الغموض الشديد الذي يحيط بمولد الإسكندر في النصف الأول من القرن الرابع قبل المسيح، فقد التقى فيليب والد الإسكندر، بأوليمبيا والدته أول ما التقيا في معبد كابيري بمدينة طيبة، وكانت أوليمبيا على ما يروي بلوتارك فتاة شديدة التدين وكان لكلمة (التدين) عند الإغريق معنى لا يكاد يضرب بسبب إلى مدلولها عندنا اليوم، فقد كانت

مراسيم التدين إذ ذاك شيئاً يشبه الرقص الداعر في أحط ما يتصور الإنسان، وكان التعمق في الدين شيئاً لا يختلف كثيراً عن الانغماس في الشهوات الجنسية وإشباع الغرائز الدنيا، فلما طلب فيليب أوليمبيا من ملك أبيروس الذي خلف أباها المتوفي على العرش استشير الإله زيوس في الأمر، وكان زيوس يمت عند اليونانيين بصلة وثيقة إلى آمون إله المصريين، فكانوا يسمونه زيوس آمون، وقبل زفاف أوليمبيا بليلة واحدة رأت في المنام أن صاعقة نزلت على جسمها فأصبح شعلة من النار، فلما أفاقت من حلمها فسرته بأن الصاعقة لم تكن إلا مظهراً لعناية زيوس آمون بأمر الخلف الذي يجيئها من هذا الزواج، وبعد الزفاف بليلة رأى فيليب في المنام أيضاً أنه طبع على جسم زوجته بخاتم منقوش عليه رسم أسد؛ فقال عراف القصر أن لهذا الحلم دلالة خطيرة، فإن الإنسان لا يختم شيئاً فارغاً، فلا بد أن تكون أوليمبيا قد حملت، وأن ولدها سيكون في الشجاعة والبأس كالأسد، وعندئذ صارحت أوليمبيا زوجها بعقيدة بدأت تساورها هي أن بين نزول الصاعقة وبين الحمل علاقة وثيقة وأن الجنين الذي في بطنها ليس ابن فيليب بل ابن الإله آمون الذي أنزل الصاعقة في المنام على جسمها، وكان من أساطير المصريين التي يغلب على الإغريق أن من عادة الإله أمون أن يهبط على مخادع الملكات من وقت إلى آخر، فيحملن منه.

وبذلك يختلط في هؤلاء الملوك دم البشر من طريق الأم بنور الآلهة من طريق آمون، وكان آمون يهبط على الملكة السعيدة الحظ عادة في صورة حية، وقد عرف عن أوليمبيا أنها كانت مولعة بحية أليفة معينة، وقد رآها

فيليب نفسه ذات ليلة من ثقب المفتاح تداعب هذه الحية على نحو أثار في نفسه الشك، وانتهى به إلى ما يشبه اليقين بأن هذه الحية ليست إلا الإله آمون نفسه.. وكان في عقائد اليونانيين كما ذكرنا ما يؤيد فكرة اتصال الآلهة اتصال حب بالنساء .. وكان المعتقد أن الإله أمون في صورة الحية، ينفخ من روحه في المرأة من أذنها فتحمل بالملك المرقوب، فلما رسخ هذا الاعتقاد في نفس فيليب وقعت القطيعة بينه وبين زوجته بعد الزفاف بفترة قصيرة، وعرف الناس سبب هذه القطيعة فأخذوا يتحدثون بها ويترقبون مولد ابن آمون المقدس.

وبينما كان فيليب بعيداً عن بيلا عاصمة ملكه، في أكتوبر سنة ٣٥٦ قبل ميلاد المسيح، جاءه البشير بأن أوليمبيا أنجبت ولداً هو الإسكندر في منتصف ليلة من ليالي الخريف العاصفة الماطرة ذات الرعد القاصف والبرق الخاطف، وعلم فيليب في الوقت نفسه بأن أحد قواده ويدعى بارمنيون أوقع الهزائم بأهل أبيليريا التي كان قد سار إليها، وأن مستعمرة بوتيديا اليونانية سلمت نفسها إليه، وكذلك علم أن جواده فاز في سباق عظيم الأهمية في أوليمبيا، وقد أجمع المنجمون على أن مجيء هذه البشريات الثلاث مع مولد الإسكندر دليل لا شك فيه على أن مستقبل الوليد سيكون باهراً ونجمه متألقاً.

***

نشأ الإسكندر في عاميه الأولين في عناية أمه تصرف أمره كيفما تشاء دون أن تسأل أباه أو يسألها شيئاً بل دون أن يعني فيليب حتى يرى وليده

ويداعبه كما يفعل الآباء، فقد كان شغله الشاغل إذ ذاك جيشه الجديد وما عسى أن يبلغ به من فتوح وغزو من بلدان، وأقبلت أوليمبيا على الإسكندر تحوطه بأعز ما تحوط به الأم الرؤوم طفلها من رعاية وحنان، واختارت له مرضعاً نبيلة المولد، طيبة المحتد تدعى هيلانة لازمته حتى بلغ من العمر ست سنوات أي إلى سنة ثلاثمائة وخمسين قبل الميلاد، وفي هذا العام رأى أهل مقدونيا من الظواهر الجوية الخارقة ما أكد في نفوسهم خرافة العنصر الإلهي المختلط في دم الإسكندر، إذ بقيت السماء أشهراً عدة مسرحاً للمذنبات والشهب كما توالت الزلازل خلال هذه الأشهر على نحو لم يسبق للإغريق عهد به، فلما أشرف الإسكندر على عامه السابع أخذ من بين أحضان مربيته ليعهد في تربيته كسائر أبناء النبلاء إلى مرب خاص، وكان المربي الذي وقع عليه اختيار فيليب رجلاً طيب الأصل يدعى ليزيما كوس، ينحدر من عائلة نبيلة في أقاليم أكارنيا الذي يجاور أبيروس الجنوبية، ولكن هذا الاختيار لم يرق في عين أوليمبيا، فلم تلبث أن عينت إلى جانب لزيماكوس قريباً لها دعى ليوانيدس وجعلت له سلطاناً أقوى من سلطان الأول، وإذا كان ليزيماكوس قد دل على وفاء نادر للإسكندر إلى أخر رمق من حياته فإن نيوانيدس قد طبع تلميذه بطابع لم يفارقه قط وهو طابع الخشونة والرجولة والقصد في كل شيء، حتى لقد كتب عنه الإسكندر فيما بعد يقول "كان من عادة هذا الرجل أن يفتح الصناديق التي كنت أحفظ فيها أغطيتي وملابسي ويفحصها ليطمئن إلى أن أمي لم تعطني شيئاً لا تمسي الحاجة إليه، ومم تزودني بشيء يؤدي إلى الشهوانية والانغماس في اللذات"، ويروي بلوتارك أن ليوانيدس كان

حريصاً على أن ينشأ الإسكندر على الاقتصاد في كل شيء حتى لقد رآه يوماً في احتفال ديني يلقي بأعواد الطيب في النار ولفته إلى أن الإسراف معيب من غير حساب، فأنبه تأنيباً شديداً حتى في هذا المقام.

ومضت أعوام خمسة أخرى من حياة الإسكندر لم يقع له فيها ما يستحق أن ينوه به، حتى إذا بلغ العام الثاني عشر لفت إليه نظر والده واسترعى اهتمامه في مناسبة مشهورة رواها بلوتارك في كثير من التفصيل وذلك أن تاجراً معروفاً من تجار الجياد جاء من تيساليا يعرض على فيليب جواداً محجلاً من الأجيال النادرة وطلب ثمناً له يتراوح بين ما يعادل ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من الجنيهات، وهو ثمن غال يدل وحده على ندرة الجواد وجماله، فلما جيء بالجواد إلى الحلبة لتجربته أمام فيليب ظهر من موجه ما خيب آمال النظارة، وجعل فيليب يشير بإعادته إلى صاحبه فما كان من الإسكندر، وكان حاضراً، إلا أن احتج على إشارة والده قائلاً أن من العار أن يضيع جواداً بديعاً كهذا لا لسبب سوى أنه لا يوجد بين الحاضرين من أوتي من المهارة والشجاعة ما يمكنه من اعتلاء صهوته وكبح جماحه، وكان طبيعياً أن يرد فيليب على ولده الذي لم يكد يتم عامه الثاني عشر، بأن يلتزم جانب الصمت فلا ينتقد الذين يكبرون سناً كأن أوتي من القدرة على ترويض الجياد أكثر مما أتوا، ولكن الذي لم يكن طبيعياً ولا منتظراً هو أن يمضي الإسكندر في احتجاجه وتأخذه عزة النفس، بل الاعتزاز والثقة بها إلى حد أن يرد على والده في محضر من الجميع قائلاً:

– إنني أستطيع بالفعل أن أروض هذا الجواد الذي أعجزكم جميعاً.

فضحك فيليب وأجابه قائلاً:

– حسن جداً، إذن فلتحاول! ولكن إذا ما فشلت، فأي جزاء تنال إزاء طيشك؟

فأجاب الإسكندر:

– إذا أخفقت كان علي أن أدفع ثمن الجواد كاملاً.

وأسرع الإسكندر في شجاعة فائقة إلى السائس فتناول منه العنان، ثم أدار الجواد بحيث يواجه الشمس، إذ خطر له أن من أسباب اضطرابه رؤية خياله يتحرك أمامه على الأرض، وأخذ الإسكندر بعد ذلك يعدو إلى جانب الجواد، وقد أمسك العنان بإحدى يديه وراح يربت على عنقه، حتى أمن الجواد جانبه، وعندئذ أطلق له العنان فمضى كالسهم، بينما حبس فيليب وأتباعه أنفاسهم خوفاً على الأمير المقدام أن يدق عنقه في أية لحظة، ولم تهدأ نفوسهم حتى رأوه يدور بالجواد التعب في سهولة واطمئنان ويعود إليهم وهو يحفز جواده بكعبي حذائه تارة وبصيحاته القوية تارة أخرى، ثم ترجل الإسكندر فاستقبل بهتافات اهتزت لها نفس الملك، فأقبل عليه ليغمره بالقبل الأبوية ويصيح به في نشوة الفرح.

– عليك أن تشق طريقك يا بني إلى تخلق لنفسك ملكاً أنت به جدير فإن مقدونيا لأضيق من أن تتسع أمام همتك القعساء!

منذ وقع هذا الحادث التفت فيليب إلى ولده، وأخذ يتنازعه عاملان متباينان أحدهما عامل الإعجاب والفخار بأميره وولى عهده الشاب، والآخر عامل القلق وإنكار بعض النزعات الغالبة عليه.

صحيح أن عنصر الرجولة كان موفوراً لدى الصبي من الناحية الرياضية، إذ كان بارعاً في ركوب الجياد، سباقاً في العدو، ماهراً في المبارزة، كما كان بفضل ليونيداس شديد الجلد على المشي الطويل المدى، وكان من أكثر ما يلاحظ عليه اتساع الخطى، ومرجع ذلك إلى اعتياد أستاذه المشي الطويل، فظل الإسكندر الى آخر أيام حياته مشهوراً بخطواته السراع الواسعة.

كان هذا كله صحيحاً، ولكن فيليب لاحظ كذلك أن ولده كثير النزوع إلى انتقاد سواه، وإنه يحسب نفسه أوفر علماً من الذين يكبرونه، وأن روح الدعابة عنده تكاد تنعدم قد قتلت في مهدها عمداً بأيدي مربيه، ولكنه كان عاطفياً مرهف الحس، ولوعا بالشعر والموسيقى الهادئة الرقيقة وكان فيليب على ما يظهر يخشى أن تغلب الخنوثة على ولده حين، فقد كان رغم بنيته القوية المفتولة العضل، ذا بشرة بيضاء ملساء كالنساء، وكان قسيم الوجه حلو التقاطيع، وكان من عادته أن يميل برأسه على أحد الجانبين ثم يرسل إلى محدثه نظرات فاترة ناعسة! ولئن كان فيليب قد سمح لنفسه بأن ينزلق إلى الحب الشاذ حتى لقي مصرعه في أعقاب فضيحة من هذا القبيل، فما كان ليسمح بأن يكون ولي عهده ووارث عرشه إلا رجلاً كامل الرجولة،

لهذا رأى فيليب أن يعهد بتربية ابنه وقد بلغ الثالثة عشرة إلى مرب تتوفر فيه صفات ساسية أربع: الأولى أن يكون رجلاً عملياً ينظر إلى الحقائق ويقدرها قدرها دون أن يحسب حساباً للأوهام والأحلام والثانية أن يكون رجل مجتمع لا ينفر من فرح الحياة الاجتماعية ومسراتها كما

ينفر ليونيداس، والثالثة أن يجمع بين الثقافة الأثينية التي كان يعجب بها فيليب أشد الإعجاب وبين روح الرجولة المقدونية التي يريد أن يغرسها في نفس ولي عهده، والصفة الرابعة أن يكون المربي المختار صديقاً له، يميل مع هواه ويظاهره فيما يريد من القضاء على نفوذ أوليمبيا وتأثير أنوثتها على روح الأمير الشاب.

ويشاء الحظ الحسن أن تجتمع هذه الصفات كلها في رجل لم يلبث أن وقع عليه اختيار فيليب وهو أرسطاليس، ابن نيكوماكوس طبيب القصر في عهد الملك أمينتاس والد فيليب، وقد كان يكبر فيليب بعامين، وكان قد رحل إلى أثينا بعد وفاة والده سنة ٣٩٧ قبل الميلاد، وهناك التحق بمدرسة الفلسفة التي كان على رأسها أفلاطون، وبعد أن لبث بها عشر سنوات تركها وقد يكون لنفسه فلسفته العملية الخاصة، وأخذ ينشر هذه الفلسفة في كتبه ويذيعها بين تلاميذه، ويظهر أن فيليب كان يعرف أرسطو في طفولته فلما انفصلا وشخص أرسطو إلى أثينا وذاعت فلسفته، ظل فيليب يتابع أنباء صديق طفولته في عطف وفخار، فأرسل إليه حين ولد الإسكندر سنة ٣٥٦ قبل الميلاد يقول:

> أكتب إليك لأخبرك بأني رزقت ولداً فللآلهة مني خالص الشكر، لا لمولد الطفل وحسب، بل لأنه أيضاً ولد في زمانك فإن لي أملان: أن يصبح في أخر الأمر تلميذاً لك، وأن يكون جديرًا بانتسابه لنا خليقاً بأن يرتقي ذروة عرشنا.

وها هو ذا أمل فيليب يتحقق إذ كتب إلى أرسطو بعد اثنتي عشر عاماً يدعوه إلى مقدونيا لينشئ بها مدرسة جديدة، وليأخذ على عاتقه

تعليم الإسكندر، فلبى أرسطو الدعوة وشخص إلى بيلا حيث استقبل بأجلى مظاهر التكريم، ثم أنشأ مدرسته في مدينة صغيرة تدعى ميزا ليستطيع بذلك إقصاء الإسكندر عن نقود أمه تحقيقاً لمشيئة فيليب، وهنا تلقى الإسكندر دروس النحو والموسيقى والهندسة والخطابة والفلسفة، فكان مبرزاً بين زملائه من أبناء النبلاء والأمراء الذين ألحقوا بمدرسة أرسطو، ويروى أنه كان يواصل استذكار دوره في الفراش شطراً من الليل، وكان يلجأ إلى طريقة غريبة لمغالبة سلطان النوم أن يحمل كرة من المعدن في يده، وهي ممدودة خارج الفراش فإذا أخذته سنة من النوم سقطت الكرة في إناء معدني بجانب الفراش وأحدثت أنينا يذهب بآثار النعاس من عينيه..

وقد لبث الإسكندر في عناية أرسطو عامين اثنين؛ فكان الفيلسوف الكبير يهذبه على طريقته في تنمية مواهب التلاميذ دون أن يحاول فرض شخصيته هو عليهم، فكان يبيحهم من حرية التعبير عن الرأي ما يدهش أساتذة الجامعات الحديثة أنفسهم، ومن أمثلة ذلك أنه سأل تلامذته يوماً كيف ينوون أن يعاملوه بوصفه أستاذهم القديم حين يؤول إلى كل منهم ما ينتظر من ثراء أو سلطان، فقال أحد التلاميذ:

– سأفرض على الجميع إعلان مظاهر التكريم والاحترام نحوك، وسيكون عشاءك دائماً على مائدتي.

وقال آخر:

– ستكون أنت مستشاري الأكبر.

فلما وجه أرسطو السؤال إلى الإسكندر أجابه غاضباً

- بأي حق تبيح لنفسك إلقاء هذا السؤال؟ وأنى لي أن أعرف ما في ضمير المستقبل، يجب عليك أن تنتظر وترى:

فسُر أرسطو بهذا الجواب الصريح الدقيق، وصاح من فوره:

- لا فض فوك، ستكون يا إسكندر يوماً ملكاً عظيماً حقاً.

ولما بلغ الإسكندر السادسة عشرة دعاه أبوه ليشترك في قتال الأثينيين، حتى يكون مستعداً لاعتلاء العرش إذا هو دعي إليه فجأة، فأبدى الإسكندر من البراعة في خلال الأسابيع التي قضاها لأول مرة في ميدان القتال، ما جعل والده يعيده إلى مقدونيا نائباً عنه في تصريف شئون الملك، وهكذا ألقي عبء الحكم على كاهل الإسكندر في هذه السن الباكرة، وكان كل ما استطاع أرسطو أن يعلمه في أثناء العامين السالفين مبادئ التفكير المنطقي والأخلاق العلمية، ولكنه لم يستطع أن يحوله عن دخيلة ما كان يعتقد من أنه ابن العناية الربانية وأنه ولد رسولاً منفذاً لإرادة الآلهة..

وكان أن قتل فيليب غيلة في أواخر صيف **٣٢٩** قبل الميلاد، ولم يكن الإسكندر قد أتم ربيعه العشرين، ولكنه كان قد عرف في مقدونيا وأثينا، وتألف قلوب كثيرين من الجند وأفراد الشعب وظهر في ميدان الحرب والسياسة جندياً ومفاوضاً سياسياً شارك في عقد الصلح مع الأثينيين، ولكن العقبات لم تلبث مع ذلك أن واجهته منذ ارتقى العرش، فالإغريق بوجه عام لم يرحبوا بالخطة التي كان يرسمها فيليب للدخول في

حرب عوان مع الفرس، أما وقد مات فيليب وخلفه الإسكندر الشاب فقد حانت الفرص للقضاء على هذا المشروع، والأثينيون لا يريدون أن يمضوا في خضوعهم للمقدونيين، فها هي ذي فرصة النكث بالمعاهدة التي عقدت بينهم وبين فيليب والخلاص من ربقة استعمار المقدونيين، وكان على رأس هذه الحركة الخطيرة في أثينا خطيب اليونان الأعظم ديموستين يثير ثائرة الأثينيين ويصب جام غضبه على الإسكندر، وينعته بأقبح النعوت، وسائر مدن اليونان تحذو حذو أثينا وتطرد الحاميات المقدونية من أراضيها إعلاناً للتمرد على الملك المقدوني الناشئ.

ولكن الإسكندر على شبابه الغض لم يطر قلبه إزاء هذا التمرد المفاجئ وواجه الموقف مستبسلاً شجاعاً غير آبه لنصائح قواده الشيوخ ومستشاري المترددين المتوجسين، فلا بد أن يعلم الإغريق جميعاً أن وفاة فيليب لا تعني أكثر من تغير اسم الملك وشخصه، أما جيش مقدونيا وشعبها فما كان ليتأثر بهذا الحادث العارض وما زالا على أتم استعداد القيادة جموع الإغريق المتحدة في طريقها لإبادة الفرس وتقويض ملكهم العريض، ولم ينقض عام واحد على ولاية الإسكندر حتى عاد لمقدونيا سلطانها على اليونان كلها، ولم يبق في البلاد مدينة واحدة تجرؤ على رفع عقيرتها بالتمرد على الملك المقدوني الشاب.

كانت خطوة الإسكندر التالية بعد أن أخضع اليونان لسلطانه، ووطد في البلاد دعائم عرشه، أن ولى وجهه شطر الشرق لتحقيق حلم أبيه الذي صمم هو على أن ينفذه فهبط آسيا في سنة ٣٣٣ قبل الميلاد، وأنزل الهزيمة بجيش كبير من جيوش الفرس في معركة جرانيقة، ثم استولى

على عدة مدائن في آسيا الصغرى وسار بعدئذ في محاذاة الساحل، تاركا فى كل مدينة ساحلية يستولي عليها حامية تقيها غارات الأسطول الفارسي الذي كانت له السيادة في البحر الأبيض، فلو أن الفرس استطاعوا أن يظفروا بإحدى تلك المدن لأنزلوا فيها جنودهم وقطعوا على الإسكندر خط الرجعة إلى بلاده.

والتقى الإسكندر بجيوش دارا الثالث في إيسوس سنة **٣٣٣** قبل الميلاد؛ فبدد شملها وانتصر انتصاراً باهراً، ثم هاجم صيدا فدانت له، وتقدم نحو صور فصمدت حينا ثم اقتحم حصونها بعد ستة أشهر أو تزيد، وقد بلغ من حنق الإسكندر وحرج صدره من جراء هذه المقاومة أن دمر المدينة تدميراً وذبح من أهلها نحو ثمانية آلاف، وتلك فظاعة قل أن تفوقها فظاعة في التاريخ.

وتولى الإسكندر بعدئذ قيادة جيوشه مهاجما غزة فأفنى جيشها عن آخره وبيع نساؤها بيع السلع بعد أن استباح الجند أعراضهن، وفي أواخر سنة **٣٣٢** قبل الميلاد دخل الشاب المقدوني مصر، وخلصها من رق الفرس وأعاد لها مكانتها الدينية الرفيعة في نفوس اليونان، واستقدم المهندس المقدوني العظيم دينوقراط لإنشاء مدينة الإسكندرية، وزار بنفسه معبد آمون في واحة سيوة ملتمساً عونه الإلهي ورضاه الأبوي — فلعل القارئ لم ينس ما قدمنا من عقدة بنوته لآمون، وقد أكد كبير الكهنة للإسكندر هذه العقيدة مرحباً به باسم والده أمون مبشراً إياه بملك عظيم ونصر مؤزر في قادم السنين.

وغادر الإسكندر مصر بعد أن أرضى كرامتها بأن عهد بإدارة شئون الوجهين القبلي والبحري إلى اثنين من كبار المصريين، وإن يكن قد عهد بوزارة المالية إلى أحد اليونانيين، وقد بدأ الرحلة من منف في أواخر أبريل أو أوائل مايو سنة ٣٣١ قبل الميلاد فبلغ صور في آخر مايو، ولم يلبث أن التقى بملك الفرس دارا في موقعة حاسمة على مقربة من نينوى، وفي هذه المعركة فشل الفرس في استخدام العجلات الحربية للهجوم على جيش الإسكندر، وتشتيت شمله، وكان النصر لفرق الفرسان المقدونيين، فقاد دارا جيوشه متقهقراً أمام الغزاة حتى احتمى في منطقة ميديا، وواصل الإسكندر زحفه فغزا بابل ثم سوس وبرسبوليس، وهنا أقيمت الولائم وشرب الإسكندر حتى ثمل قام بإشعال النيران في قصر دارا ملك الملوك.

واستأنف الفاتح المقدوني غزواته في آسيا الصغرى فوصل إلى أقصى حدود الإمبراطورية الفارسية، وقد اتجه أول الأمر إلى الشمال فطارد الفرس، ومضى إلى جبال تركستان ثم انحدر بطريق هراة (وكان قد أنشأها قبل أن يهبط مصر أو كابل ومر خبير مقتحماً بلاد الهند حيث التحم بجيشه مع جيش الملك بوروس الهندي في معركة هائلة على نهر مهران، وفي هذه المعركة رأى جنود مقدونيا الفيلة للمرة الأولى وتغلبوا عليها، وأخيراً بنى الإسكندر لجيشه السفن ومضى بها إلى مصب نهر مهران، ثم عاد محاذياً شاطئ بلوخستان فوصل سوس سنة ٣٢٤ قبل الميلاد بعد أن غاب عنها ست سنوات، وهنا أقدم الإسكندر على أجرأ خطوة عرفها التاريخ لتوثيق الروابط بين الشرق والغرب، فقد عمد إلى المزاوجة بين

اليونانيين والمقدونيين من ناحية وبين الفرس والبابليين من ناحية أخرى، وراح يشجع على هذه المزاوجة بكل وسيلة من وسائل الإغراء فأنفق المال لعقد هذه الزيجات، وأغدق الهدايا على الأزواج، وبادر فجعل من نفسه وكبار قواده وجنده مثلا يحتذى في التزويج بالفارسيات والبابليات، فبلغ عدد الذين تزوجوا في ليلة واحدة أكثر من عشرة آلاف يوناني ومقدوني..

وكان الإسكندر يريد بهذا مزج الشعوب الشرقية بالغربية مستعيناً على ذلك بأوثق الصلات، وهي صلة الرحم: كان يسعى إلى خلق أجيال جديدة لا تستشعر غضاضة الفرق بين جنس وجنس، وذلك الفرق الذي كان ولا يزال شوكة يصوبها الغربي إلى جنب الشرقي.

ولقد أصاب الدكتور طه حسين بك إذ جعل الإسكندر من أجل هذه التجربة بطلا من الأبطال الذين ترجم لهم الدكتور في كتابه "قادة الفكر"، وقال عنه أنه "لم يكن قائد جيش ليس غير، وإنما كان قائد فكر قبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء، وإن تجربته لو تمت لغيرت وجه الأرض وطولت سير التاريخ".. وسواء علينا أكان الإسكندر مصيباً أم مخطئاً في هذه الفكرة وفي انتهاج هذا المنهج، وسواء علينا أوفق أم لم يوفق، وإنما الشيء الوحيد الذي لا شك فيه هو أن الإسكندر لم يكن يريد أن يفتح الأرض وحدها، وإنما كان يريد أن يفتح معها العقل، فهو الذي قارب بين الشرق والغرب ومزج العقل الشرقي بالعقل الغربي، ولولا حركة الإسكندر هذه لكانت للشرق وللغرب شئون غير شئونهما التي عرفها التاريخ؛ فالإسكندر إذا قائد من قواد الفكر، بل هو زعيم من

زعماء قادة الفكر القدماء إنتاجاً وأكثرهم نفعاً، فما قيمة الفلسفة اليونانية كلها لو لم يتح لها الإسكندر ليذيبها في أقطار الأرض ويثبتها في مختلف الشعوب.

ومن الغريب أن بعض المؤرخين يريدون أن يجردوا هذه التجربة الخطيرة من معناها الإنساني فيزعموا أن الإسكندر لم يكن جد حريصا على إزالة الفوارق بين أجناس العالم وشعوبه، ولا هو أراد أن يجمع الشرق بالغرب والا لأعلن ذلك وصرح به ولدعا عدداً من بنات اليونان ومقدونيا لتزويجهن بعلية الفارسيين، وإنما كان غرض الإسكندر سياسياً عملياً ليس غير، فهو لم يكن يريد أكثر من أن يوثق برباط المصاهرة علاقته بالعناصر ذات النفوذ في البلاد المحتلة، وهذه حجج غريبة لا مقنع للباحث المدقق فيها.. فمن أين لنا أن الإسكندر لم يصرح بغرضه حين أقدم على تجربة، وأن تصريحه ضاع بين الجانب الأعظم الذي عفى الزمن عليه من آرائه وأقواله، فإذا لم يكن قد صرح بغرضه فمتى كان كل صاحب تجربة مكلفاً بالإبانة عن أغراضه وآماله، وما يدرينا أن الإسكندر لو امتد به الأجل لما استقدم من اليونان نساءً يزاوج بينهن وبين سادة الفرس، ولا سيما بعد اطمئنانه إلى النتائج الأولى للتجربة؟ وماذا يمنع أن يكون الإسكندر قد أراد أن يرمي عصفورين بحجر واحد وهو يمازج بين الفرس والإغريق فيحقق غرضاً إنسانياً عاماً هو إذابة الفوارق بين الأجناس، وينتفع بهذا الغرض نفسه لتثبيت ملكه في البلاد التي فتحها بحد السيف؟

يضاف إلى هذا كله في ترجيح الجانب الإنساني على السياسي في

تجربة الإسكندر، ما كان مشهوراً عنه من ميل إلى تشجيع البحث العلمي والفلسفي وإغداق المال على المشتغلين به، حتى ليرون أنه منح أرسطو مبلغا يعادل ثمانمائة ألف جنيه دفعة واحدة للاستعانة بها في مباحثاته.

ومهما يكن من أمر الغرض الذي كان يرمي إليه الإسكندر، فإن مجرد حث جنوده على الزواج بأهل البلاد المغلوبة على أمرها يدل وحله على أن الحاكم ألغى بسط سلطانه على العالم قبل المسيح بنيف وثلاثة قرون لم يكن يحمل في صدره روح التعصب التي تسيطر على بعض زعماء الغرب في القرن العشرين، وتدفع بعضهم إلى تحريم الزواج بين الساميين والآريين، وتدفع بعضهم الآخر الى تحريم الاتصال بأهل المستعمرات على أي وجه كان.

على أن الأجل لم يمتد بالإسكندر حتى يبدأ ما كان يختمر في رأسه من مشروعات ويتم ما كان قد بدأ من تجارب وسياسات، فأصيب بحمى، يظهر أنها الملاريا بعد أن كان قد أعد العدة وجهز جيوشه للقيام بحملة برية عبر إفريقيا حتى يصل مضيق جبل طارق، وهناك ينتزع نفوذ الفينيقيين ويستولي على غرب أوروبا في طريقه إلى مقدونيا من طريق الغرب بعد أن انتصر متجهاً الى الشرق، ولم تمض أيام على إصابته بالحمى حتى نفدت قواه وفارق الحياة في أصيل الثالث عشر من شهر يونيه **٣٢٢** قبل الميلاد وسرعان ما تفرق ملكه العريض، وتقاسمه قواده والطامعون فيه، ولكن أثر فتوحاته العظيمة بقي خالدًا يشهده العالم إلى اليوم.

طرفة بن العبد.. الشاب القتيل

أربعة عشر قرناً ونيف من الزمن لم تقو على أن تسدل ستار النسيان على ذكرى هذا الشاب المخلد، أربعة عشر قرناً ونيف من الزمن استطاعت أن تمحو من صفحة الذكريات أسماء الآلاف من الملوك والقواد والساسة والشعراء الذين تطاولت بهم الأعمار، ولكنها وقفت عاجزة لا تملك أن تمحو بيد الفناء صفحة هذا الشباب النابغة الذي انحدر إلينا مجده التليد من ظلمات الجاهلين الأولى بما فيها من بداوة العيش وضيق الأفق والأمية السائدة والجهالة.. لقد خلد طرفة رغم جاهلية عصره، ورغم ذلك السلاح الآخر الذي طالما شهر في الوجوه فمحا آية النبوغ في أصحابها وحجب عنهم نعمة الذكر الخالدة وهو سلاح الشباب الباكر وحداثة السن.

أسلم طرفة روحه بيد القتل أو الغدر –كما يرى فيما بعد– وهو في العشرين من عمره فقيل له (ابن العشرين) فإذا أخذنا بالرواية الأخرى لم نجد ما ينفي أنه قتل في حداثته، ونعني بها الرواية التي تجعل مقتله في السادسة والعشرين من عمره استشهادا بقول أخته في رثائه:

عددنا له ستا وعشرين حجة ... فلما توفاها استوى سيداً ضخماً

فجعنا به لما رجونا إيابه على ... غير حال لا وليداً ولا قحماً

والقحم هو المتناهي في السن وقد وردت كلمة (خمساً) بدلاً من (ستا) في ديوان أخت طرفة.

نشأ عمرو (وهو اسم طرفة) في أسرة ذات ثراء وحسب. والثراء والحسب، كما لا يخفى أمور نسبية تختلف باختلاف البيئة والزمن، وهي معروفة عند البدو والحضر على السواء، ويظهر أن هذا الوسط العالي كان سبيلاً إلى اتصال طرفة "ببلاط" عمرو بن هند ملك الحيرة، وحضور مجالسه، وشجعه ذلك على إطلاق العنان للسانه، والاجتراء على نقد الناس ومهاجمتهم كلما ثارت نفسه أو رأى محلاً للنقد والذم، فكان أن بعد صيته وذاعت شهرته بين قومه، كما كان أن لقي من جراء لسانه المر وذهنه الحديد.

فمن نقداته اللاذعة التي لا تخلو من سلاطة لسان والتي مازالت تستنكر من الأحداث حين يتعرضون لمن يتقدمون في السن، أنه كان يوماً في مجلس بين هند وبين يدي الملك شاعر معدود في ذلك العهد ينشد الملك إحدى قصائده، فإذا الشاعر يصف نفسه في أحد الأبيات "بالصيعرية" وإذا صوت رفيع يصيح صاحبه كما يصيح أبناء البلد الذين لا تفوتهم الواحدة.

- استنوق الجمل.

وذلك أن الصيعرية من صفات الناقة دون الذكر من الجمال، ويروى أن الشاعر التفت حينئذ وسأل: من ذاك الغلام؟ فلما ذكروا له أنه طرفة بن العبد قال وكأنما يستشف ما وراء أستار الغيب.

- ليقتلنه لسانه!

ولما مات أبو طرفة وهو يومئذ صغير، لاحظ أن أعمامه يريدون أن

يأكلوا أموال أبيه ويحرموا أمه حقها في الميراث، وكانت أمه تغلبية تدعي وردة ووالده من قبيلة بكر فنشر طرفة لسانه مدافعاً عن حق أمه دفاعاً قوياً استعاد فيه ذكرى الوقائع الدامية التي جرت بين بكر وتغلب لأتفه الأسباب، وحذر أعمامه مغبة تعريف القبلتين لمثل ذلك الشر المستطير، ومن هذه الأبيات قوله:

مــا تنظــرون بحــق وردة فــيكم   صـغر البنـون ورهـط وردة غيـب

قـد يبعـث الأمـر العظـيم صـغيره   حـتى تظـل لـه الـدماء تصـبب

والظلــم فــرق بــين حيــي وائــل   بكــر تســاقيها المنــايا تغلــب

والصــدق يألفــه الكــريم المرتجــى   والكـذب يألفـه الـدنيء الأخيـب.

وينسب إلى طرفه أن لسانه جرى بالشعر لأول مرة حين خرج يوماً مع عمه في سفر فنصب فخاً يريد أن يصيد به قبرة، فلما آن الرحيل ولم يوفق إلى ما أراد من صيد قال:

يا لــــك مــــن قــــبرة بمعمــــر   خـلا لـك الجـو فبيضـي واصـفري

ونقــرى مــا شــئت أن تنقــري   قــد رفــع الفــخ فمــاذا تحــذري

لابد يوماً أن تصادي فاحذري

ولكن الواقع أن هذا الشعر أو بعضه أقدم من طرفة، وأنه مدخول عليه، وإن يكن ابن قتيبة قد ذكره في كتابه "الشعر والشعراء" ولم يداخله فيه ريب.

***

بلغ من جرأة طرفة وقلة اكتراثه لأهل زمنه، أنه لم يقصر هجوه

وتهجمه اللاذع على عامة الناس وأعيانهم، بل تطاول على مقام عمرو ابن هند نفسه وأخ له هو قابوس بن هند، وكان كلاهما شديد البطش مرهوب الجانب، وبخاصة عمرو الذي كانت تضرب بقسوته الأمثال؛ فقد قال طرفة في هجائهما قصيدة صرح فيها باسميهما تصريحا وفي هذه القصيدة يقول:

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول قبتنا تخور

ومنها:

لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كبير

والرغوث هي المرضعة، والنوك هو الحمق، وقد روى المفضل الشطر الأخير هكذا "ليخلط ملكة بول كثير" والرواية الأولى أجدر بطرفة معنى ولفظاً.

والأقوال مجمعة على أن هذه الأبيات كلفت طرفة غالياً؛ إذ دفع حياته ثمنا لها، وكان تماديه في الاعتماد على مكانته من قومه وإسرافه في الاعتداد بنفسه سبباً في ضياع الفرصة الذهبية متى أتيحت للنجاة. ذلك بأن عمرو بن هند ظل جاهلاً ما كان من هجاء طرفة له ولأخيه، لأن إنساناً ما كان يجرؤ على أن يخبر الملك بذلك لشدة بطشه وبأسه؛ فكان أن قام عمرو بن هند للصيد ذات يوم مصطحباً أحد أصفيائه المقربين، وهو عبد عمرو بن بشر، وكان عبد عمرو (سيد أهل زمانه) وكان متزوجاً من الخورنق أخت طرفة ويظهر أن خلافا نجم يوماً بين الرجل وزوجه فشكت الخورنق عبد عمرو إلى أخيها الشاعر، فما كان منه إلا أن بادر إلى شاعريته يستنجدها لتأديب الزوج المغاضب والثأر لأخته منه، فكانت القصيدة التي يقول منها في هجاء عبد عمرو:

ولا خـير فيـه غـير أن لـه غـنى　　　وإن لـه كشـحا إذا قـام أهضـما

ونعود إلى حديث عمرو بن هند؛ فنقول إنه حين خرج في رحلته إلى الصيد، ومعه عبد عمرو أصاب طريدة فعقرها، ثم قال لعبد عمرو: انزل إليها، ولكن عبد عمرو، كما يبدو، كان لين العود ضعيف البنية، فأعيته الطريدة، ولحظ ذلك عمرو بن هند فضحك وقال:

لقد أبصرك طرفة حيث يقول:

ولا خـير فيـه غـير أن لـه غـنى　　　وإن لـه كشـحا إذا قـام أهضـما

وفي رواية أخرى أن الملك قال لعبد عمرو، وذلك بينما كانا ينويان الصياد ومعهما نفر من الحاشية، فقد نظر الملك إلى خصر صاحبه، فأبصر كشحه من خلال خرق في قميصه، وكان عبد عمرو جميل الجسم فكان أن تغزل الملك فيه بأبيات طرفة.

والرواية الثانية قد تفسر لنا السر في ثورة الحياء والغضب التي استولت على عبد عمرو حين سمع هذه الغمزة أمام الحاشية، فرد على الملك قائلاً:

- أبيت اللعنة ما قال فيك أشد مما قال في.

فقال الملك:

- وما الذي قال؟

وهنا يفيق عبد عمرو من ثورته، ويذكر ما لنسبه عليه من حق الرعاية والمداراة، وصور لنفسه ما تجر النميمة على طرفة من شر مستطير، تذكر

عبد عمرو هذا كله فهم بالتراجع نادماً على ما قال، ولكن ولت ساعة مندم؛ لقد نفذ السهم ولم يبق للتراجع سبيل، فقد أصر الملك على أن يعلم ما قال فيه طرفة، ولحظ تردد عبد عمر في أن يسمعه هجاء الشاعر الشاب الذي يمت له بأوثق صلات النسب، فقال الملك.

– أسمعنيه وطرفة آمن.

وعندئذ اطمأن عبد عمرو، وأسمع الملك قصيدة طرفة فقال:

– أو قد بلغ من أمره أن يقول في مثل هذا الشعر

ثم سكت على مضض، ولكنه صمم في دخيلة نفسه على الانتقام..

يبدأ الفصل الثاني من مأساة الشاب القتيل بعد هذا الحديث بزمن غير قصير، تظاهر الملك فيه بأنه عند وعده لعبد عمرو، بل تقدم الملك خطوة لستر ما خفي من سوء نيته، فأظهر رضاه عن طرفة واستقدمه وأطال إكرامه حتى أنس إليه واطمأن، وعندئذ أمر الملك بالكتابة إلى رجل بالبحرين ليقتل طرفة فقال له بعض رجال الحاشية.

– إنك إن قتلت طرفة هجاك المتلمس

والمتلمس هذا شاعر يدعى جرير بن عبد المسيح، كان صديقاً حميماً لطرفة، وكان قد هجا أيضا عمرو بن هند، وفي بعض الروايات أن الملك استقدمه هو وطرفة، فأقاما معاً عنده ثم دبر لهما مكيدة القتل، ولكني أرجح أن الملك لم يدع المتلمس إلا بعد دعوة طرفة بوقت طويل، وفي هذا ما يفسر الاطمئنان المطلق الذي أورد طرفة مورد الحتف على نحو ما يرى القارئ.

وسواء أكانت دعوة المتلمس بعد طرفة أم كانت معه، فإن الذي تتفق عليه الروايات هو أن الملك أرسلهما معاً إلى نائبه في إقليم البحرين ومع كل منهما كتاب من الملك بأن يقتل حامله، ولكن الملك أوهمهما بأن الكتاب ضمن الوصية بإكرامها وإغداق الهدايا عليهما.

ويخرج الشاعران في طريقهما إلى الحيرة، فإذا هما يمران -كما تقول إحدى الروايات- بشيخ شاذ السلوك يأكل ويفعل في الوقت نفسه ما يثير الاشمئزاز في النفس، فلم أخذ المتلمس عليه هذا الشذوذ رد الشيخ مبرراً سلوكه قائلاً:

- ... ولكن أحمق مني من يحمل حتفه بيمينه.

ولئن كان هذا الحادث هو الذي أثار الشكوك والهواجس في نفس المتلمس أو أن المتلمس استشعر الشك لشدة تلطف عمرو بن هند من الشاعرين اللذين اشتهرا بهجائه، فإن هذا الشك أمر مقطوع به وليس بغريب أن يكون المتلمس قد قال لصاحبه وهو في الطريق:

- تعلمن والله أن ارتياح عمرو لي ولك لأمر عندي مريب، وما انطلاقي بصحيفة لا أدري ما فيها؟

فيجيبه طرفة بروح الاستهتار التي ينطق بها شعره:

- إنك لتسيء الظن وما تخاف من صحيفة إن كان فيها الذي وعدنا رجعنا.

ويأبى المتلمس أن يقتنع بفلسفة صاحبه فيدعوه إلى أن يفضا خطابيهما

ويعرضاهما على أحد ليقرأهما –فقد كان الشاعران أميين – ولكن طرفة يصر على رأيه ويصم أذنه عن سماع هذه الوساوس، فيغض المتلمس خطابه آخر الأمر، ويرفض بحق أن يحمل لأحد الحكام كتاباً قد يكون فيه حتفه حتى إذا أشرف الشاعران على الحيرة وجدا غلاماً من صبيه الكتاب فسأله المتلمس.

– أتقرأ يا غلام..؟

فقال الغلام:

– نعم.

فناوله المتلمس كتابه فطالعه الغلام ثم قال:

– أنت المتلمس

قال: نعم

قال: النجاة فقد أمر بقتلك وتبين ما في الكتاب "إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً.."

فرمى المتلمس الكتاب في نهر اسمه "كافر" وقال فيما بعد عن هذا الحادث:

ألقيتها بالثنى من جنب "كافر" كذلك يلقى كل قط مضلل

رضيت لها بالماء لما رأيتها يجول بها التيار كل جدول

ومن هذا ضرب المثل بصحيفة المتلمس. أمام هذا كله كان الاتجاه الطبيعي أن يقتنع طرفة بصدق ما كان من شك صاحبه المجرب، فيطلب

النجاة من هذا الشر الذي ينتظره ولا ريب كما كان ينتظر صاحبه ولكن وقع كل شيء إلا هذا فقد أقبل المتلمس على طرفة يقول له:

- تعلم والله أن الذي في كتابك مثل الذي في كتابي.

وإذا طرفة يظل على خديعته، ويرفض أن يفض كتابه ليحسم الشك على الأقل، وتتملك الشاب روح الثقة والاعتداد بالنفس فيجيب صاحبه:

- لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذي يجترئ علي.

وعندئذ لم يسع المتلمس إلا أن يفر إلى الشام وحده، فلما بلغه ما وقع لطرفه قال أبياته المشهورة.

من مبلغ الشعراء عن أخويهم	أودى الذي علق الصحيفة منهما
خبراً فتصدقهم بذاك الأنفس	ألق الصحيفة لا أبالك أنه
ونجا حذار حبائه المتلمس	يخشى عليك من الحباء النقرس

ومضى طرفة بكتابه المختوم، حتى أتى والي عمرو بن هند على إقليم البحرين فدفع إليه الكتاب الملكي فقرأه الوالي ثم التفت إلى طرفة قائلاً:

- تعلم ما أمرت به فيك؟

فقال طرفة ولهجة الاطمئنان المفرط لم تفارقه:

- نعم، أمرت أن تجيزني وتحسن إليَّ!

فقال الوالي وهو حائر بين الشفقة وحكم الواجب:

إنك في حسب كريم، وإن بيني وبينك خؤولة أنا لها راع، فاهرب من ليلتك هذه فإني أمرت بقتلك! فاخرج قبل أن تصبح ويعلم بك الناس، فإن كتابك إن قرئ لم أجد بداً من أن أقتلك!

وهذه نصيحة كريمة تدعو إلى إكبار صاحبه النبيل الذي يلتمس بابا للتوفيق بين واجبه نحو مليكه وواجبه الآخر نحو هذا الشاب الذي تجمعه به رابطة من قرابة أو صداقة، ولكن طرفة حتى في هذه المرحلة التي يشرف فيها على مصرعه لا يريد أن يغتنم الفرصة الذهبية السانحة للنجاة، وإنما يتمادى في اعتداده بمكانته واطمئنانه إلى ما أظهر له الملك من ود ورعاية، فيتهم الوالي بتهمة قاسية ظالمة إذ يرد عليه قائلاً:

اشتدت عليك جائزتي وأحببت أن أهرب، واجعل لعمرو بن هند علي سبيلاً، كأني أذنبت ذنباً، والله لا أفعل ذلك أبداً.

إزاء هذا الموقف الذي يمليه التمرد والتجني لم يجد الوالي مناصاً من أن يحبس طرفة، ثم أرسل إلى الملك يلتمس منه أن يرسل والياً آخر ليتولى تنفيذ الحكم في الشاب المسكين. ويظهر أن الوالي الأول واسمه ربيعة بن الحارث العبدي كان شديد الترفق والعطف على طرفة حتى لقد عامله في الحبس أرفق المعاملة وألينها فبعث إليه بجارية اسمها خولة تخفف عنه آلام الوحدة في السجن، ولكن طرفة رده ثم قال قصيدته المشهورة:

ألا اعتزليني اليوم يا خول أو غضي   لقد نزلت حدباء محكمة العض.

وفي هذه القصيدة يعترف طرفة بأنه كان مخدوعاً مغروراً، وينثني مستعطفاً عمرو بن هند في عبارات لا تخلو من الضراعة والندم، ومن

ذلك قوله:

أبا منــذر كانــت غــروراً صــحيفتي ولم أعطكم بالطوع مالي ولا عرضي.

أبا منــذر، أفنيــت فاســتبق بعضــنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وتختلف الروايات اختلافاً شديداً في قتلة طرفة، والواقع أن الروايات لا تكاد تتفق على شيء في أمر طرفة أو غيره من شعراء الجاهلية، ويقال أن الذي قتله رجل من الحوائر، كما يقال أن الذي أمر بقتله يدعى المعلي بن حنش العبدي، وأما الجلاد فيدعى معاوية بن مرة، وفي إحدى الروايات، ولعل في معلقة طرفة ما يؤيد هذه الرواية أن طرفة سئل أن يختار قتلته فطلب أن يسقى خمراً حتى يثمل ثم تقص بعض شرايينه، فكان له ما طلب.

***

من حسن الحظ أن طرفة استطاع أن يترك لشخصيته صورة حية ناطقة لا تكاد تشعر بفداحة ما خسره تاريخ الأدب العربي بندرة أخبار الشاعر الشاب ومغامراته ومسامراته وآرائه، فقد سجل طرفة هذا كله أحسن تسجيل وأوضحه في شعره الذي تتمشى بين سطوره حرارة الصدق والإخلاص إلى جانب ما يمتاز به من تغلب السلاسة في التعبير على طبيعته البدوية الجافة، وأظهر ما تتجلى فيه شخصية طرفة قصيدته الكبرى التي نالت حظوة الاختيار بين القصائد الممتازة المسماة بالمعلقات أو المذهبات.

يقــول ابــن رشــيق في كتابــه العمــدة: "وكانــت المعلقــات تســمى المذهبات، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعوب فكتبت في القباطي

بماء الذهب وعلقت على الكعبة؛ فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره... وقيل بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول: علقوا لنا هذه لتكون في خزانته، ويرى آخرون أن العرب سموا القصائد بالمعلقات لعلوقها بأذهان صغارهم قبل كبارهم ومرؤوسيهم قبل رؤسائهم، وذلك عناية بحفظها والاحتفاظ بها.

ومهما يكن من أمر هذه التسمية وسرها، فإن قصيدة طرفة كانت بين القصائد السبع التي يترنم بها العرب ويفاخرون بها، بل كانت ثانية هذه القصائد بعد معلقة امرئ القيس.

في هذه القصيدة يقدم طرفة نفسه إلى قرائه ورواة شعره أبدع تقديم فيقول:

إذا القوم قالوا من فتى؟ خلت أني   عنيت، فلم أكسل ولم أتبلد

ولست بحلال التلاع مخافة   من متى يسترفد القوم أرفد

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني   وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد

متى تأتني أصبحك كأساً روية   وإن كنت عنها ذا غنى، فاغن وازدد

وإن يلتق الحي الجميع تلاقني   إلى ذروة البيت الشريف المصمد

ولست أجد في التعليق على هذه الأبيات السلسة الرائعة خيراً من قول الأستاذ العميد الدكتور طه حسين بك: "فانظر إليه وهو يتقدم إليك ظريفاً رشيقاً، خفيف الروح، حازماً مع ذلك كل الحزم، واثقاً بنفسه أشد الثقة، راضياً عنها كل الرضى، شاعراً بواجبه الاجتماعي أوضح الشعور وأقواه يؤمن بأن قد خلق لقومه قبل أن يخلق لنفسه، فهو يجيبهم

إذا دعوه وأن لم يوجهوا الدعوة إليه كأنهم لا يستطيعون أو لا ينبغي لهم أن يدعوا غيره، وكأنه هو الفتى كل الفتى! هو الفتى الذي يختصر سباب قومه اختصاراً ويمثلهم، ويحتمل عنهم أثقال القبيلة كلها، وهو يستجيب لدعوة الداعي سواء أوجهت إليَّ أم إلى غيره مسرعاً لا كسلاً ولا متبلداً، وكيف يكسل أو يتبلد وهو الفتى الذي ملأ نفسه إعجاباً بنفسه وملأ نفوس قومه إعجاباً به واعتماداً عليه، فأول صفاته إذن هذا الشباب الذي يدفعه إلى أن يتمثل الواجب الوطني أقوى التمثل ويسرع إلى الإجابة إليه.

ثم هو بعد ذلك لا يكتفي بالمشاطرة والمغامرة في سبيل هذا الواجب، ولكنه كريم أيام السلم لا يستتر ولا يتوارى، ولا يهرب بقوته من المستغيثين والمستجيرين، هو لا ينزل الأماكن الخفية التي ترى فيها المنازل ولا يقصد إليها المحتاجون. إنما ينزل الأماكن الظاهرة يعطي إذا سئل، كما يجب إذا دعي، وإذا اطمأن الرجل إلى أنه يشعر بواجبه أصدق الشعور، ويؤديه أحسن الأداء، ويعطي قومه وغير قومه من نفسه وماله في غير تحفظ، ولا بخل، ولا إشفاق، فمن حقه ألا يبخل على نفسه بالخير ولا يحول بينها وبين نعيم الحياة.. وصاحبنا لا يحرم نفسه كما أنه لا يحرم الناس، هو لا يستتر منك ولا من غيرك، وهو يدلك على الأماكن التي تستطيع أن تجده فيها إن احتجت إليه، فأما في ساعة الجد فتستطيع أن تلتمسه في حلقة قومه، هناك حيث يجتمعون في ناديهم يتحدثون ويتشاورون أن عرض لهم من الأمر ما يدعو إلى التشاور، فهو يشارك قومه في جدهم كله وإن كان شاباً لأن له من الرشد والحلم وحسن البلاء

ما يمكنه من ذلك، ويفرضه على قومه فرضاً، وأما في غير ساعات الجد فأنت تستطيع أن تلتمسه هناك، حي يلتمس أترابه من الشبان المترفين الذين لا يضنون بأنفسهم ولا بأموالهم حين يحتاج إليهم، ولا يقعدون عن اللذات حين تتاح لهم وقات الفراغ، تستطيع أن تتلمسه في الحانات عند هؤلاء الخمارين الذين يحملون خمرهم المعتقة في الحضر فيمتعون بها شباب البادية ويحببون بها إليهم لهو الحياة، ولن يضيع سعيك إذا سعيت إليه تلتمسه في حانة من هذه الحانات، فهو لن يلقاك بخيلاً، ولا شحيحاً، ولا كنزاً، ولكنه سيشركك في لهوه، وسيسقيك حتى تروى، وهو لن يكرهك على ذلك، فأنت وما شئت، إن كان بك ظمأ نقعت غلتك، وإن كنت غنياً فيزداد الله غنى، ولا بأس عليك فإذا أردت ن تسأل عنه دون أن تلقاه، فأنت تستطيع أن تسأل من شئت فستعلم أنه ليس من أوساط قومه ولا من أقلهم خطراً، وإنما هو الشريف الكريم من أشرف البيوتات وأكرمها، وهو منها في أرفع منانة ورقاها".

ويسترسل طرفة في وصف حاله من جد وهزل، غير متحفظ ولا متردد، فتراه في أبيات أخرى من معلقته يحول ضيق المجال عن إيرادها، يصرح بأن شركاءه في لهوه بالحانات خلان (بيض كالنجوم) تعينهم على الله والشراب غادة حسناء لا تتأذى ولا تتحرج حين تمتد إلى جسمها أيدي هؤلاء الشبان عابثة مداعبة! وقد أعجبني تشبيه الدكتور طه حسين بك تفلك القينة بهذه الفتاة التي تصورها الأغنية الفرنسية التي كان يتغنى بها الجند أيام الحرب ويسمونها مدلون! ويظهر باعتراف طرفة أن إسرافه في البذل والتبذل قد در عليه غضب قومه واستنكارهم.

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريقي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد

ولكن طرفة لا يبالي هذا النفور والنكران، وهو لا يفعل ذلك لمجرد اللجاجة في الغي والاستكبار عن الرشاد، ولكنه يقيم الحجة على رشاده في غيه وحقه في الضلال فهو يبني مسلكه على فلسفة راسخة في أعماق نفسه، يعرضها في منطق صريح قوي فيسائل الذين يلومونه على تعريض نفسه للخطر في الحرب أو تعريض صحته للدمار في عالم اللذة والمجون، يسائل هؤلاء اللائمين هل يضمنون له الخلود إذا أقلع عن هذه السبيل أو تلك فإذا كان الموت قضاءً لا بد منه، ينزل على الشجاع كما ينزل على الجبان، ويحل بالجواد كما يحل بالبخيل، فمن حق الإنسان إذن أن يرضي نفسه بأداء ما عليه من واجب في ميدان القتال، كما يرضي جسمه بأن يستمتع بما يتاح له من متع ولذات!

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادره بما ملكت يدي

كريم يروي نفسه في حياته ستعلم إن متنا غداً أينا الصدى

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى في البطالة مفسد

أرى الموت يعتام للكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

ويمضي طرفة في شرح فلسفته البسيطة، فيقول: إن الحياة كالمال الذي يتناقص بمضي الأيام فمصير هذا المال آخر الأمر إلى نفاذ لا شك فيه، وإنما مثل الإنسان في نجرته المؤقتة من الموت كمثل الدابة المقيدة في

طرف حبل تقبض على طرفه الآخر يد صاحب الدابة فلا تفلت منه.

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة   وما تنقص الأيام والدهر، ينفذ

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى   لكالطول المرخي وثنياه باليد

وهذه الفلسفة نفسها هي التي يعود طرفة إلى تصويرها في ختام قصيدته فيقول:

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى   بعيداً غداً، ما أقرب اليوم من غد

على هذا التصوير البارع للحياة أقام طرفة نظام لهوه وجده هازئاً بما يلقى من ثورة قومه عليه وأهله، فتراه يصارح ابن عمه الذي كان على ما يظهر أشد الأهل سخطاً على طرفة واستهتاره علام يخاصمه ويقاطعه، ويلح في المقاطعة والخصام:

فمالي أراني وابن عمي مالكاً   متى أدن منه ينأ عني ويبعد

يلوم وما أدري علام يلومني   كما لامني في الحي فرط بن معبد

ويرجو طرفة من ابن عمه أن يتركه وشأنه، وأن يقصر عنه هذا اللوم، وهو على كل حال شاكراً له سابق فضله وعنايته بأمره وإن بعد عنه أقصى البعد حتى يجعل بيته عند ذلك الجبل النائي البعيد جبل ضرغند.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند!

فذرني وخلقي أنني لك شاكراً   ولو حل بيتي نائياً عند ضرغد.

وينتقل طرفة من هذا العتاب إلى نوع آخر من الاستهتار بما حل به من فقر وعسر، ولكنه استهتار بما حل به من فقر وعسر، ولكنه استهتار

أشبه ما يكون بالتحسر والتمني، فيقول:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير وزارني بنو كرام سادة لمسود

ويقول أن عمرو بن مرثد تأثر أشد التأثر حين سمع هذين البيتين يقولهما ابن عمه طرفة فأرسل من يقول له: "أما الولد فالله يعطيكهم وأما المال فسنجعلك فيه أسوتنا"

واستدعى الرجل أولاده وكانوا سبعة، وأشار بأن يكتتب كل منهم لطرفة بعشر من الإبل احتذاء لمثاله، فاشترك في الاكتتاب ثلاثة، كانوا يفاخروا إخوتهم الآخرين بما قدموا (لعمهم) طرفة من العون الذي يغنيه. وفي القصيدة بيت آخر يشير إلى قصة غير هذه، وذلك حيث يقول طرفة رداً على ابن عمه، وعجباً من قطيعته إياه، إنه — أي ابن عمه– يقاطعه:

على غير ذنب قلته، غير أنني نشدت فلم أغفل حمولة معبد

فهنا يشير طرفة إلى حادث وقع بينه وبين أخيه معبد بن العبد، فقد كان طرفة كأمثاله من الشعراء في كل عصر، شاباً صاحب خيال يصرفه عن شئون الدنيا وواجباتها المادية، وقد لاحظ أخوه ذلك، فلامه على أن يترك إبلهما ترعى بلا رقيب لاشتغاله بخيالاته وأحلامه الشعرية، إذ قال له وفي تهكم لاذع.

– لا تسرح إبلك كأنك تظن أنها إن أخذت ردها عليك شعرك.

فأهاج ذلك التقريع الساخر حماسة الشاعر الشاب، فأجاب:

– والله لا أخرج فيها أبداً

فرد أخاه قائلاً:

– حتى تعلم أن شعري سيردها إن أخذت.

وترك طرفة الإبل فأخذها قوم من مصر، فاستغاث بعمرو بن هند في قصيدة معروفة، وأفلح الشاعر في استرداد إبله بذلك السلاح الذي استضعفه معبد، وهو سلاح الشعر.

***

بقيت كلمة لا بد منها قبل ختام هذا الفصل عن شاعرنا الشاب، وهي تتناول مكانة طرفة في تاريخ الأدب العربي. روى الأصمعي أن رجلاً من العرب قال: قدم علينا جرير فقلنا:

– من أشعر الناس؟

فقال: الذي يقول بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد، ومعنى هذا أن صرحت الرواية أن جريراً، وهو الشاعر العربي الفحل وضع طرفة على رأس إمارة الشعر كله.

وسئل الشاعر الفارس لبيد بن ربيعة، الذي كان يلقب بأبي عقيل:

– من أشعر الناس؟

فقال – الملك الضليل (يعني امرأ القيس)

قيل – ثم من؟

قال – الشاب القتيل (يعني طرفة)

قيل – ثم من؟

قال – الشيخ أبو عقيل (يعني نفسه)

فلبيد هنا يقدم طرفة على نفسه ويجعله بعد امرئ القيس، رأس الطبقة الأولى في الجاهلية.

وهذا الذي قاله لبيد في شأن طرفة وامرئ القيس هو نفسه الذي قاله فيما بعد عبد القادر البغدادي، إذ وصفه بأنه أشعر الشعراء بعد امرئ القيس، واستشهد البغدادي على ذلك بأن معلقته توضع في ترتيبها بعد معلقة الشاعر الضليل وقبل سائر المعلقات.

ورأي ابن سلام يخالف رأي البغدادي، إذ يجعله في كتابه (طبقات الشعراء) في الطبقة الرابعة مع عبيد بن الأبرص وعلقمة الفحل. والواقع أن تقديم هذا الشاعر على ذلك، وجعله في هذه المرتبة أو تلك، أمر كان دائماً محل خلاف لا ينتهي ولا يمكن أن ينتهي ما دام في العالم كل هذا الخلاف بين أذواق الناس وأهوائهم، يستوي في ذلك العرب والعجم، على أن هناك رأيا في طرفة لم أجد أصدق منه، ولا أحكم وهو على كل حال يضع الشاعر الشاب في مكانة قل من يستطيع إنكارها عليه، وأعني بذلك رأي قتيبة بن مسلم إذ كتب له الحجاج بن يوسف الثقفي يسأله سؤالاً صريحاً عن أشعر الشعراء في الجاهلية وأشعر الشعراء في ذلك الوقت، أي وقت قتيبة فاصطنع قتيبة نهجاً في الجواب جد موفق إذ قال:

– أشعر شعراء الجاهلية امرؤ القيس، وأضربهم مثلاً طرفة، وأما

شعراء الوقت فالفرزدق أفخرهم وجرير أهجاهم والأخطل أصفهم.

والذي يعنينا هو قول قتيبة أن طرفة أضرب شعراء الجاهلية مثلًا، ولا نظن أحدًا يستطيع أن يمتري في ذلك، وحسبنا دليلًا أننا إلى اليوم لا نزال نتمثل بشعر هذا الشاب الجاهلي، وإن يكن أكثر الذين يتمثلون بشعره لا يعرفون من أمره شيئًا، بل لا يعرفون أنه قائله، ومن منا لم يتمثل في وقت ما بهذه الحكم وجوامع الكلم:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلًا ويأتيك بالأخبار من لم تزود!

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

ويقال في رواية أن رسول الله ﷺ تمثل بقول طرفة، وبعيدًا غدا ما أقرب اليوم من غد" ولست أرى في ذلك ما يخالف قوله تعالى: "وما علمناه الشعر وما ينبغي له" فإن التمثل بحكمة شعرية متداولة لا يعني أن المتمثل بها يعلم الشعر على النحو المفهوم من العلم به.

موزار.. طفل المعجزات

"موزار" هكذا ينطق الاسم بالألمانية، بينما ينطقه الفرنسيون دموزار .. لم يكن موتسارت من نوابغ الشباب وحسب بل كان طفلًا نابغة كذلك، فكان يدعي بحق في فجر حياته «طفل المعجزات»، على أن أعجب ما في حياته الحافلة بالعجائب، وهو ذلك المظهر الذي يكاد ينقطع نظيره، مظهر اجتماع النقيضين: إجماع العالم الفني على تقدير نبوغه منذ ظهرت بواكير هذا النبوغ، أي منذ استطاع فولفجانج أن يحرك لسانه بالكلم. ثم اقترن طفل المعجزات هذا التقدير الشامل بالضنك المالي يعانيه الموسية النابغة حتى يختم صفحة حياته غارقًا في الدين، وصافح أرملته عامًا بعد عام حتى تستدر عطف الإمبراطور جوزيف الثاني، فتقام تحت رعايته حفلة خيرية ويحتذى مثاله في المدائن الأخرى، وبهذه الوسيلة وحدها تستطيع أرملته أن تسدد ما كان على العبقري المنكود الحظ من ديون.

* * *

كان ليوبولد موتسارت، والد المترجم له، موسيقيًا في فرقة رئيس أساقفة زالتسبرج (بالنمسا) وكان معروفًا بالجد وإن لم يؤت من العبقرية ما يؤهله لأن يتجلى في عالم التأليف الموسيقي. ولم يكد يستقر في عمله عند رئيس الأساقفة حتى بنى بممرضة حسناء تدعي أنا برتلينا، فكان أهل زالتسبرج يقولون إنه لم يسبق لبلدتهم أن شهدت زوجين في جمال هذين العروسين وقسماتهما.

وقد أثمر هذا الزواج السعيد سبعة أولاد تخطف الموت منهم خمسة في سن الطفولة ولم يعش سوى اثنين: مايا أنا، وقد ولدت في ٢٦ أغسطس سنة ١٧٥١ وشقيقها جون كريزوستوم فولفجانج أماديوس، وقد ولد في ٢٧ يناير سنة ١٧٥٩ لم يؤت ليوبولد موتسارت، كما قلنا، عبقرية تؤهله لأن يتألق نجمه في عالم التأليف الموسيقي، ونعني بالتأليف هنا صوغ الألحان الموسيقية واختراعها، ولكنه أوتي العبقرية بأكمل معانيها في ناحية أخرى لولاها لما قدر للعالم أن يظفر بعبقرية فولفجانج موتسارت التي لم يسبق لها مثيل، ذلك أن ليوبولد كان معلمًا موسيقيًا لا يشق له غبار. فاستطاع أن يهب عالم الموسيقى هبتين عظيمتين أولاهما مؤلفه الذي نشر في نفس الذي ولد فيه فولفجانج وعنوانه "محاولة لوضع نهج أساسي للكمان" وهو بحث فني بليلغ الشأن في فلسفة الموسيقى وطريقة أدائها، ويكفي للتدليل على أهمية هذا المؤلف أنه لم يكد يظهر حتى أخذ نجم ليوبولد يرتفع وصيته يذيع في أنحاء أوروبا كمعلم موسيقى عليم بأسرار مهنته، وعلى أساس نظريات ليوبولد التي أودعها هذا الكتاب، أقام أعظم عازفي الكمان في ألمانيا مجدهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر

أما الهبة الثانية التي ظفر بها العالم من ليوبولد موتسارت فهي عبقرية ولده النابغة فولفجانج، تلك العبقرية التي ما كانت لتظهر فياضة الضياء على العالم لولا براعة ليوبولد كمعلم موسيقى، ولولا حسن رعايته وشدة التفاته لتربية أولاده وتعهد ملكاتهم الفنية على خير ما يستطيع أن يفعل والد لفلذات كبده

وقد اكتشف ليوبولد مواهب ولده الموسيقية من طريق المصادفة، إذ

كان الوالد معنيًا بتعليم ابنته العزف على البيانة (البيانو) ولها من العمر سبع سنوات، فإذا فولفجانج وله من العمر إذ ذاك ثلاث سنوات يحرص أشد الحرص على أن يحضر دروس أخته بغير انقطاع. وإذا به بعد ذلك يبدي شغفًا شديدًا بالإيقاع أسوة بشقيقته؟ ثم يتقدم مرحلة أخرى فيجعل سلوته اكتشاف مسافات جديدة بين مفاتيح البيانو!

ولما بلغ موتسارت الرابعة كان في استطاعته أن يستظهر الألحان الفردية الطويلة في مقطوعات (الأوركسترا) التي كان يمتع نفسه بالإصغاء إليها. فأخذ أبوه يخصص دروسًا موسيقية له. ولكن الطفل لم يقتنع بدروس الإيقاع، بل جمع بين درس الإيقاع ودرس التلحين، أي التأليف الموسيقي، في وقت واحد، إذ كانت طبيعته الخصبة النادرة توحي إليه من الأعماق بأسرار الطرب والإيقاع. والتوافق والتآلف في الأنغام؛ فليس غريبًا مع هذه الطبيعة الفتية أن يستطيع الطفل في ختام العام الرابع من حياته أن يلحن المقطوعات الصغيرة التي كان يضعها الله والده، لقد ظل ليوبولد موتسارت يرقب ملكات طفله وهي تتجلى وتنمو سريعة في العامين التاليين حتى لم تبق لديه خالجة شك في عبقريته الفذة الخارقة، فحزم أمره على أن يذهب بالطفل وشقيقته معًا إلى بلاط بافاريا في ميونيخ، ونفذ عزمه في يناير سنة ١٧٦٢.

كان فولفجانج شديد الحيوية شديد الذكاء، وكان قبل انقطاعه الموسيقى يعمد إلى التسلي بمثل ما يتسلى به أضرابه الأطفال من ألعاب صبيانية ينسى في أثنائها كل شيء حتى غذاءه، ولكنه بعد ذلك انصرف عن هذه الألعاب إلا أن تكون ممتزجة أشد الامتزاج بالموسيقى.

وكان الطفل إلى جانب ذلك شديد الحساسية رقيق الطبع، حتى لقد كان يسأل من حوله عدة مرات في اليوم عما إذا كانوا يحبونه أم لا، فإذا أجاب أحدهم بالنفي من قبيل المزاح اغرورقت عيناه بالدموع.

ومن غريب ما يؤثر عن فولفجانج أنه ظل طول حياته بارعًا أشد البراعة في الحساب، وقد بدأ يتعلمه في طفولته مع الموسيقى؛ فأولع بدراسته حتى كاد يصرفه عن فنه الأصيل، وبلغ من شغفه به حينئذ أن كان يملأ الجدران والكراسي والمناضد، بل أرض الغرفة نفسها بحلول المسائل الحسابية العسيرة.

على أن أعجب ما يُذكر عن نبوغ موتسارت في هذه السن المبكرة، أنه في السادسة من عمره لم يكن قد بدأ يتغلب على عقبة من أعظم العقبات التي تواجه الملحن وهي تميز الأنغام من النوطة دون استعانة بأية آلة موسيقية!

نعود إلى رحلة ليوبولد مع ولده وابنته إلى مونيخ في يناير سنة ١٧٦٢ فنقول أنها استغرقت أسابيع ثلاثة عزف خلالها فولفجانج أمام منتخب (أمير) بافاريا وانتزع من سامعيه أشد الإعجاب. ثم عاد الثلاثة إلى زالتسبرج لاستئناف دراسة الموسيقى بروح مجددة النشاط، وسرعان ما بدأ الطفل يتلقى دروس العزف على الكمان، وقد روى صديق للعائلة هو شاختنر الموسيقى هذه الحادثة التالية للدلالة على العبقرية الكامنة في طبيعة طفل المعجزات.

ذلك أنه قبل أن يتلقى فولفجانج دروسه المنتظمة في الكمان جاء لزيارة والده موسيقى بارع من عازف الكمان اسمه فنتسل لتجربة بعض مقطوعات من تلحينه وهنا ندع شاختر يتكلم:

فأخذ الأب آلة الكمان المنخفضة الطبقة، وأخذ فنستل آلة الكمان الأولى، وتناولت أنا الثانية، وأقبل فولفجانج الصغير يتوسل إلى والده أن يدعه يعزف على الكمان الثانية، ولكن الوالد أبى عليه ذلك بحجة إنه مادام لم يلقن أصولها لن يؤدي الدور على وجهه الصحيح فأجاب الطفل بأن العزف على الكمان الثانية لا يتطلب من الإنسان تعليمًا. وعندئذ نفذ صبر الأب فطلب من فولفجانج أن ينصرف ولا يزعجنا. فأخذ الطفل يبكي بكاء مرًا وانصرف بكمانه، ولكني رجوت أن يسمح له بالعودة والعزف معي، فوافق الوالد أخيرًا وقال لفولفجانج:

– حسنًا. إذن فلتعزف مع هر شاختنر، ولكن تذكر جيدًا أنه ينبغي لكان تعزف عزفًا خفيفًا بحيث لا يسمعك أحد، وإلا بادرت إلى إقصائك..

وبدأنا العزف، ومعنا موتسارت الصغير يعزف على كمان مثل كماني، ولكن سرعان ما لاحظت أن عزفه يطغى على تمامًا، فوضعت آلة الكمان في سكون وأنا أنظر إلى الولد فإذا به لا يقوى على حبس دموعه وقد عزف فولفجانج المقطوعات الست بمنتهى الدقة والضبط؟

وفي ١٩ سبتمبر سنة ١٧٦٢سافرت العائلة كلها إلى فيينا فاحتجزها أسقف لينتس خمسة أيام كاملة في باسا لفرط إعجابه بالطفل وأخته، فلما

بلغوا فينا كان صيتهم قد سبقهم. ولهذا نرى الأب يكتب في خطاب من فينيا في ١٦ أكتوبر:

"إن السيدات في كل مكان شديدات الحب بولدي، ونحن الآن حديث المتحدثين في كل مكان"

ثم ينال الطفل أعلى مراتب الشرف فيقدم إلى إمبراطور النمسا فيصف الوالد هذا الحادث العظيم في خطاب آخر بقوله: "لا أجد الآن من الوقت ما أستطيع معه أن أقول أكثر من أن صاحبي الجلالة قد استقبلانا بكل رعاية وإكرام. حتى ليعد اتصال بهما ضربًا من الخيال، وقد قفز فولفرل اسم التدليل لفولفجانج في حجرة الإمبراطورة وأحاط عنقها بذراعيه، وأخذ يقبلها بحرارة، وقد بقيا في القصر من الساعة الثالثة إلى السادسة، وأقبل الإمبراطور نفسه إلى غرفة الاستقبال واستدعاني لأسمعه الطفل يعزف على الكمان، وقد أرسلت إلينا الإمبراطورة أمس الخميس مع أمين خزانتها الخاص الذي وقف بمركبة أمام مسكننا (فستانين) أحدهما للطفل والآخر للبنت"..

واشتد شغف الخاصة والنبلاء بالطفل والإعجاب ببراعته الخارقة حتى أصبحوا يتزاحمون على الاستئثار به، وقد صور الوالد الفخور هذه الظاهرة بقوله في أحد خطاباته:

"كنا اليوم نعزف عند سفير فرنسا، وغدًا سنذهب إلى قصر كونت هاراش ونحن في كل مكان نؤخذ ونعاد إلى مسكننا في عربات النبلاء. وقد وافقنا على أن نحضر من السادسة إلى التاسعة حفلة كبيرة يعزف فيها

أعظم فناني فينيا، وضمانًا لعدم اضطرارنا للتأخير أصبح ينفق معنا قبل الموعد بأيام أربعة أو خمسة بل ثمانية كما حدث عندما دعانا مدير البريد العام الكونت بارفي يوم الاثنين، وقد حدث مرة أن بقينا في أحد القصور من منتصف الساعة الثالثة إلى نحو الساعة الرابعة .. ثم أرسل كونت هاديج عربته فأقلتنا بأقصى سرعة إلى دار إحدى السيدات، حيث بقينا إلى منتصف السادسة، وبعد ذلك ذهبنا إلى قصر كونت كاونتس حيث بقينا إلى نحو الساعة التاسعة..!"

وفي ذات ليلة بينما كان الطفل وأخته ووالدهما عن الإمبراطورة، بدت على فولفجانج علائم المرض المفاجئ ولم يلبث أن ظهر عليه طفح قرمزي فبادر إلى معالجته أحد أطباء فينيا المشاهير، ولكنه لم يتناول أجره مالاً بل موسيقى. وأرسل بعض النبلاء تمنياتهم بشفاء فولفجانج، ولكنهم لم يتعدوا هذا الحد الأفلاطوني من العطف، ولم يخطر لهم أن يبعثوا إلى الطفل بهدية ما!

ومن طريف ما يذكر عن موتسارت الصغير وصراحته العجيبة في هذه الرحلة أنه بينما كانت ابنتا الإمبراطور ذاهبتين بالطفل ذات يوم إلى الإمبراطورة زلت قدمه على أرض القاعة الأملس البراق فلم تعبأ إحدى الأرشيدوقتين بالحادث، وأما الأخرى وهي ماري أنطوانيت التي أصبحت فيما بعد ملكة فرنسا ثم رمى بها سوء الحظ إلى المقصلة، فقد أنهضته وأخذت ترفه عنه وتهوِّن عليه ما حدث فالتفت إليها وقال: "إنك لطيفة جدًا. وسأتزوجك!"، ولما قصت الأرشيدوقة هذا الحديث على أمها سألت فولفجانج كيف خطر له أن ينتهي إلى مثل هذا القرار فأجابها قائلًا: «دافع

عرفان الجميل، فقد كانت لطيفة جدًا. أما أختها فلم تعبأ بي!»

وعادت العائلية في أوائل سنة ١٧٦٣ إلى زالتسبرج حيث واصل الطفل دراسته على يدي والده، دون أن يداخله أقل أثر من الزهو أو الغرور. وقد بلغ من شدة امتثاله لإرادة والديه أن كان يأبى أن يتناول أية هدية أو يجسر على أن يقبل من أصدقائه أي طعام بغير إذن والديه، وبلغ من تقديسه لوالده أن كان يقول دائمًا «الله أولًا ثم يأتي الوالد مباشرة»

ولم تلبث العائلة أن سافرت في أوائل يونيو من العام نفسه في رحلة فنية جديدة، وكان فولفجانج حينئذ في الثامنة من عمره، وفي هذه الرحلة كان الطفل يعزف على البيانو والأرغن والكمان، وكان يغني ويمثل ويلحن على البديهة؛ فلم يعجز قط عن قبول ما تحداه به العابثون أو الحاقدون، واستطاع أن يرد إلى نحورهم ما أرادوا له من إحراج أو كيد.

وقد بدأت الرحلة بالسفر إلى فاسنبجر في بافاريا ثم إلى مونيخ التي بلغتها العائلة في ٢١ يونيو سنة ١٧٦٣، وهناك استقبلها أمير تسفايبروكن ومنتخب بافاريا أحسن استقبال، وتهافت العظماء والنبلاء على سماع الصبي وأخته حتى كان من العسير الانتقال من هذه المدينة لمواصلة الرحلة. ومن طريف ما حدث عندئذ أن أمير تسفايبروكن أخذ يماطل في دفع أجر الموسيقي النابغة، لا لأن الأمير لا يريد أن يدفع، ولكن ليبني تقديره على ما سيدفعه منتخب بافاريا! وأخيرًا دفع المنتخب مائة فلورين فدفع الأمير خمسة وسبعين ومن ميونيخ إلى أوجسبريج ثم شفسكنجن، مصطاف الإمبراطور، ثم هايدلبرج ثم مانيس ثم فرانكفورت. وهناك استيقظ

فولفجانج ذات صاح باكيًا، فلما استفسره والده قال إنه حزين لانقطاعه عن رفاقه وذكرهم بأسمائهم.

وفي خطاب من الوالد، أنهم انتقلوا من فرانكفورت بعد أن نالوا قسطًا عظيمًا من التقدير والإعجاب إلى بون. وفي بون لم نجد منتخبًا (أميرًا) ولكنا وجدنا في إكس لاشابل الأميرة أميليا أخت ملك بروسيا. بيد أنها ليست بذات ثراء، ولو أن قبلاتها للطفلين وبخاصة الأستاذ فولفجانج، كانت جنيهات ذهبية، ولكنا اليوم في حال أحسن بكثير مما نحن فيه، ولكن لا صاحب الفندق ولا مدير البريد يسمح لنا باستعمال القبلات عملة جارية!»

ويصف الوالد في نفس هذا الخطاب حالة العسر المالي التي يواجهها في طريقه إلى باريس فيقول: «لقد أغدقت على الطفلين في الواقع هدايا ثمينة عدة، ولست أنوي أن أحيلها نقودًا؛ فقد أهدى إلى فولفجانج مثلًا حسامان ثمينان: أحدهما من رئيس أساقفة ميتشلين الكونت فرانكنبرج، والآخر من الكونت فيراريش. ولكني فقير إلى المال»

وليس لهذا العسر المالي من تعليل سوى شدة فقر النبلاء أنفسهم في ذلك العصر الحافل بالمتناقضات والعجائب، ولاسيما فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية.

وصلت العائلة إلى باريس فاستقبلت استقبالًا حسنًا، وحظيت بعناية قرينة سفير بافاريا التي أنزلتها بالفندق الذي تقيم فيه هي نفسها، ولكن وطأة العسر المالي اشتد على العائلة بسبب مصادفة إعلان فترة حداد عند

وصولها إلى باريس.

وبعد انتهاء فترة دعيت عائلة موتسارت إلى قصر فرساي للعزف أمام الملك، وقد حدث حينئذ أن أمرت مدام دي بمبادور، حظية لويس الخامس عشر المشهورة بأن يقف الطفل على منضدة الخاصة، فلما تقدم لتحيتها أدارت له ظهرها وانصرفت عنه، وعندئذ صباح الطفل محنقًا: «ومن هذه التي لا تريد أن تقبلني؟ لقد قبلتني الإمبراطورة نفسها من قبل!»

كان التوفيق رائد الطفل العبقري في هذه الرحلة فعزف كما قلنا أمام الأسرة المالكة، وعزف على الأرغن بالكنيسة في حفلة حضرها رجال البلاط جميعًا، ونشرت أولى مؤلفات موتسارت الطفل وهي فرديات أربع على البيانو مع متابعة الكمان، وقد أهديت منها اثنتان لمدام فكتوار ابنة الملك والثانية لكونتس تيسيه.

ويصف ليوبولد موتسارت وحفاوة الأسرة المالكة به وبطفليه فيقول في أحد خطاباته:

"على أن أشد ما أدهش الحاضرين هو أنه في مأدبة العشاء التي أقيمت ليلة رأس السنة أفسح لنا وحدنا الطريق إلى المائدة الملكية، حيث كان للأستاذ فولفجانج شرف الوقوف على مقربة من الملكة ومحادثتها وتسليتها بغير انقطاع، وكان يأكل تارة ما تقدمه له الملكة من المائدة وتارة يقبل يدها.

وبعد أن أصابت أسرة موتسارت ما أصابت من نجاح عظيم في باريس

غادرتها في ١٠ إبريل سنة ١٧٦٤ إلى لندن حيث أقامت إلى منتصف العام التالي، وقد أتيح لها هنا أيضًا أن تحظى بشرف العزف أمام صاحبي الجلالة ملكي الإنجليز في السابع والعشرين من الشهر الذي وصلت فيه، وكذلك في الشهر الذي تلاه إذ عزف الطفل على أرغن الملك، ونال مثل الإعجاب الذي ناله في فرساي. وهناك أيضًا أصيب الطفل ببرد ألزمه الفراش فبدأ يؤلف حينئذ للتسلية أول سيمفوني لفرقة الموسيقى الكاملة.

ورغم أن الطفل في هذه الفترة تقدم تقدمًا عظيمًا وصفه والده في أحد خطاباته بقوله، "إن فولفجانج العظيم الجبار، وإن لم يبلغ سوى الثامنة من عمره، أصبحت له مواهب رجل في الأربعين، رغم هذا التقدم الفني العجيب ترى طبيعة الطفولة الساذجة اللاهية تلازم موتسارت العبقري حتى لقد كان ذات مرة يعزف أمام أحد كبار الإنجليز فرأى قطة جميلة تدخل الغرفة؛ فوضع الكمان وأقبل على القطة يداعبها ويشتغل بها عن الأعيان والنبلاء الحاضرين، وكان أحيانًا يضع عصا بين رجليه ويطوف حول الغرفة كما لو كان ممتطيًا أحد الجياد.

وبعد عام شعرت العائلة بتضاؤل الإيراد؛ فقرر الوالد مغادرة البلاد بدعوى أن الإنجليز قوم لا دين لهم ولا تربية، وهكذا غادرت العائلة إنجلترا إلى هولندا، ثم إلى فرنسا فسويسرا، ومنها الى زالتسبرج في أواخر سنة ١٧٦٦ وهناك أحيط الطفل بعطف رئيس الأساقفة ووضع للجامعة ألحانًا موسيقية لرواية هزلية لاتينية وعدة مقطوعات أخرى للبيانو وسمفوني (للأوركسترا) الكاملة، حتى إذا كان شهر سبتمبر سنة ١٧٦٧ غادرت العائلة كلها زالتسبرج مرة أخرى في رحلة إلى فيينا.

كان الحظ إلى ما قبل هذه الرحلة مواتيًا، فنال الطفل ما لا مطمع معه في مزيد من التقدير والرعاية والإعجاب، ولكن الدهر أخذ يقلب ظهر المجن للطفل، أو على الأصح للصبي، منذ انتقل في هذه المرة إلى فيينا، فإذا مقدمه يثير الحفائظ في نفوس الموسيقيين، وإذا هم يتألبون جميعًا على موتسارت الذي لم يزل في الثانية عشرة من عمره، ولكنه حظي دونهم بتكريم الإمبراطور والإمبراطورة؛ فدبروا فيما بينهم خطة يطفئون بها نور هذا العبقري الذي قام في طفولته يهدد شهرتهم ويخفت صيتهم. وكانت خطتهم أن ينكروا علمهم بوجود (شيء) اسمه فولفجانج موتسارت، وسماعهم بأن موسيقى منسوبة إليه، وأن يؤكدوا عجز مثل هذا الطفل عن التلحين ويقطعوا بأن الأمر لا يعدو أن يكون تضليلًا وعبثًا صارخًا بأفهام الناس.

إزاء هذا المكر السيء، وإزاء الضيق المالي الذي أخذت العائلة تعانيه لاستحالة إقامة الحفلات إذ ذاك بسبب انتشار الجدري، إزاء هذا أخذ ليوبولد موتسارت بمشورة القيصر وعهد إلى ابنه بتلحين رواية غنائية أوبرا ولكن الأوبرا لم تكد تلحن حتى قام في سبيل إخراجها كل ما يتصور العقل من عقبات، فمن إرجاء مصطنع إلى اعتذارات منتحلة إلى وعود مخلفة. ومن تهويش متعمد في أثناء التجارب (البروفات إلى ما لا حصر له من أساليب الدس والكيد التي كانت ومازالت تجد مرعاها الخصيب في الجو المسرحي على وجه خاص..

وأخيرًا عادت العائلة إلى زالتسبرج، حيث واصل فولفجانج دراسته مستزيدًا من درايته باللغة الإيطالية، حتى إذ كان شهر ديسمبر سنة

١٧٦٩ رحل الوالد وابنه إلى إيطاليا، وبقيا بها إلى مارس ١٧٧١ وهناك استقبلا استقبالاً باهرًا، ولقيا من ضروب الإعجاب والتقدير ما كان جديرًا أن يمحو ذكريات الدس والحقد اللذين أحاطا بهما في فيينا؛ فقد حظيا هنا أيضًا بعطف الأسرة المالكة ومحبة الملكة بنوع خاص، وأنعم البابا على فولفجانج بلقب "فارس"، وانتخبته عدة أكاديميات موسيقية عليا عضوًا فيها والتقى في روما بسفير إنجلترا اللورد هاملتون، وزجته الليدي هاملتون خليلة نلسون المشهور، وتوج هذا كله بلقب شعبي وأصبح فيما بعد جزءًا من اسم الموسيقي النابغة، وهو قلب المحبوب فظل اسم موتسارت بقية حياته فولفجانج أماديوس موتسارت.

ولم يكد الوالد وولده يعودان إلى زالتسبرج في سنة ١٧٧١ حتى تلقيا دعوة موجهة إلى الموسيقي الصغير باسم الإمبراطورة ماريا تريزا لتلحين بعض مقطوعات مسرحية للاحتفالات التي تقام في الخريف بميلان بمناسبة زواج الأرشيدوق فرديناند، وكانت هذه فرصة نادرة لكي يظهر فولفجانج عبقريته إلى جانب عبقرية الموسيقى العجوز هاسي الذي كانوا يلقبونه (بالإلهي) لعظمة ألحانه، وكان النصر للشاب حتى لقد صرح ماسي نفسه في مجتمع عام قائلًا: إن هذا الشاب سيلقي بنا جميعًا في الظلام! وقد تحققت نبوءته فإن فولفجانج غادر إيطاليا بعد أن لحن الأوبرا التي مثلت في ميلانو نحو ثلاثين ليلة بلا انقطاع.

على أن متاعب الحياة لم تلبث أن واجهت الأسرة جديًا، لاسيما أن رئيس أساقفة زالتسبرج الجديد لم يكن صاحب ذوق موسيقي، ولا عاطفة إنسانية؛ فقد بذل فولفجانج كل جهده حين التحق مع أبيه بفرقة الكنيسة

لكي ينال تقدير رئيس الأساقفة، ولكن غاية ما استطاع أن يكسبه من عمله بالكنيسة، رغم هذا كله لم يتجاوز ما يعادل جنيها مصريًا في السنة.

وبلغ من تعنت الرجل أن رفض التصريح للوالد وولده بأجازة يرحلان فيها من جديد بإذاعة الفن الصبي النابغة؛ فآثر الوالد أن يحتفظ بهذا المورد من الزرق على ضالته، واستقال والده ثم صحب والدته في رحلة للبحث عن وظيفة عند أمير أجنبي يكون أعدل حكمًا وأكثر تقديرا لعبقريته فرحل أول الأمر إلى مانهايم، ولكنه ظل الشهور الطوال ينتظر من أميرها رفضًا لخدماته أو قبولًا، حتى إذا جاءه الرد بالرفض لم يبادر بالرحيل سعيًا وراء الغرض الذي رسمه لنفسه حين استقال من زالتسبرج، ولعل القارئ يدرك سر هذا التلكؤ إذا عرف أن الصبي وقد أصبح الآن شابًا في الثانية والعشرين، ولقي في هذه المدينة فتاة ألمانية في الخامسة عشرة جميلة الصوت مبدعة في أداء أحبها من أعماق قلبه، حتى كاد يقعد عن مواصلة الرحلة إلى باريس.

هبط الشاب باريس مع والدته في ٢٣ مارس سنة ١٧٧٨ فبدأ ببراعته وجده اللذين قلما فارقاه، ولكن الحظ التعس كان يهيئ له مزيدًا من الفشل والتنغيص؛ فزادت متاعبه المالية، وضاق الشاب صدرًا بالباريسيين وفساد ذوقهم الموسيقي آنذاك وتجردهم من صدق العاطفة واكتفائهم بإزجاء التحية والإطراء ثمنًا لما يستمتعون به من نتاج العبقريين.. وتصادف أن خلت وظيفة موسيقية في قصر فرساي بمرتب يعادل في ألمانيا ٣٣٣ ريالًا في ستة أشهر، وهو مبلغ قد يكون ذا قيمة في ألمانيا، ولكنه لا يساوي شيئًا يذكر في باريس، ولهذا رفض الشاب هذه

الوظيفة مكتفيًا بما يكسب من دروسه الخاصة إلى أن يجد الوظيفة التي تليق به.

وبينما موتسارت يعلل النفس بالأماني معتصمًا بالصبر، إذا بالقدر يهوي عليه بضربة تلقاها بشجاعة جديرة بأثبت الرجال جنانًا وأشدها جلدًا. فقد نزل الموت بوالدته في ٣ يوليو سنة ١٧٧٨ إثر مرض لم يدم سوى أسبوعين. فلم تذهب هذه النازلة بصوابه، بل بادر إلى كتابة خطاب إلى والده يخبره فيه بأن والدته مريضة، وتدرج من هذا إلى أن وطأة المرض شديدة، وأن كل ما يأتي به الله خير على كل حال، ولكنه أشفق على والده فلم يفض في هذا الخطاب بنبأ الوفاة. وقبل هذا أرسل إلى صديق والده ينبئه بالحقيقة، ويرجو منه أن يهيئه لتلقي النبأ الفاجع، وبعد أيام ألقى الشاب إلى والده المحزون بتفاصيل المأساة.

لم تطل إقامة فولفجانج في باريس بعد ذلك؛ إذ خشي عليه الوالد من الوحدة في العاصمة الفرنسية، ودعاه إلى العودة إلى خدمة رئيس أساقفة زالتسبرج بشروط حسنة قبلها الرجل نادمًا على سلوكه الأول. وكذلك دعا الوالد ولده إلى أن يعود بالفتاة التي كان قد عرفها وأحبها في مانهايم، وهي مدموازيل فيبر، وكان صيتها في الغناء قد بلغ زالتسبرج، فغادر موتسارت باريس في ١٦ سبتمبر سنة ١٧٧٨ وعرج في طريقه على ميونيخ حيث انتقلت عائلة حبيبته مدموازيل فيبر، ومع إلى دار العائلة وقلبه يثب بين جنبيه من فرحة اللقاء العاجل، وفي نفسه من العواصف ما صوره البحتري في بيته الخالد:

ولو عرف الناس التلاقي وحسنه   لحبب من أجل التلاقي التفرق

ودخل الموسيقي الشاب على حبيبته التي فارقها وفارقته بدموع منهمرة مستهلات، دخل فإذا بها لا تكاد تعرفه ولا تكاد تذكر أن بينها وبينه عهدًا واجب الوفاء، وهناك أدرك موتسارت علة العمل في كل عهد حائل، وهل من علة غير طبيعة المرأة وقلبها المتحول؟ فجلس إلى البيانو وغنى في رجولة وأنفة جديرين به:

"إنني أتخلى طيب الخاطر عن الفتاة التي لا تميل إلي ......"

وهو مذهب الشاعر العربي الذي قال:

لو تمنى البعد عني   نور عيني.. ما تبعته!

واتجه موتسارت بقلبه بعدئذ إلى إحدى شقيقات الوزير فيبر هذه، وهي كونستانس فيبر، وانتهى الحب الجديد بينهما فيما بعد بالزواج.

عاد موتسارت إلى زالتسبرج في يناير سنة ١٧٧٩ أي بعد ثلاثة أشهر وأيام من مبارحته باريس. والتحق مرة أخرى بخدمة رئيس الأساقفة بالشروط الجديدة التي أشرنا إليها، وأخذ يواصل تآليفه الموسيقية حتى دعاه منتخب بافاريا قبيل شتاء سنة ١٧٨٠ لتلحين أوبرا «أيدومينو» فغادر زالتسبرج في ٦ نوفمبر سنة ١٧٨٠ إلى مونيخ حيث أتم تلحين الأوبرا في منتصف يناير سنة ١٧٨١، وكان نجاحها الرائع متوجًا للعام الخامس والعشرين من حياة موتسارت العظيم.

وعند منتصف مارس سنة ١٧٨١ تلقى موتسارت أمرًا بأن يلحق ببلاط زالتسبرج في فيينا، وهناك لقي من الهوان ما لا يكاد يلحق بالمعقول،

وكيف يعقل أن يعود موتسارت من هذا النصر المؤزر الموصول الحلقات؛ فيجد نفسه ببلاط زالتسبرج في منزلة لا تزيد على منازل الخدم والطهاة.

كتب موتسارت إلى والده في ١٧ مارس يخبره بأنه وصل إلى فيينا، ثم يصف له كيف تناول عشاءه فيقول: (وهناك جلس إلى المائدة الغلامان ومراقب الخدم والهر تسيتي مصانع الحلوى، والطاهيان، وشخصي الحقير! وقد تصدر الغلامان المائدة، وكان لي على الأقل شرف الجلوس في مكان متقدم على الطاهيين)

وكان طبيعيًا أن تثور نفس الموسيقي الذي طبقت شهرته أنحاء أوروبا ولقي في إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا كل ما لقي من إعجاب وتقدير، وأحدث في عالم الموسيقى انقلابًا فنيًا بروايته الرائية "إيدومنيو"، كان طبيعيًا أن تثور نفس موتسارت العظيم على هذا الهوان، وأن يستقيل من هذه الوظيفة التي عانى فيها من الذل ما كاد يذهب بصحته، إذ بلغ من تأثره ذات ليلة أن اضطر إلى مغادرة دار الأوبرا في منتصف الفصل الأول وعاد إلى الدار يرتعد ويترنح من الحمى كالسكران.

غادر موتسارت وظيفته إذن، في إباء خليق بعبقريته وعظمته الفنية، ولم يلبث أن خاض غمار الحياة الحرة معتمدًا على قلمه الفياض وإنتاجه الخصب وجهده الذي لا يكاد يعتوره الفتور، فأخذ يتكسب بإعطاء الدروس وتلحين المقطوعات القصار والطوال والعزف على البيانو في حفلات النبلاء. وقد ظل موتسارت خلال خمس سنوات من سنة ١٧٨١ أمير عازفي البيانو من غير منازع. وفي هذه الفترة عرف أستاذ الموسيقى

جوزيف هايدن، ونشأت بينهما صداقة من أنبل ما عرف في تاريخ التعاون الشريف بين رجل الفن وزميله، ولم يقطع حبل هذه الصداقة سوى الموت الذي عاجل موتسارت في ريعان حياته، وقد عاش هايدن بقية حياته وفيًا لذكرى موتسارت مشيدًا بعبقريته، ويؤثر عنه أنه كان يقول كثيرًا:

«لا يمكن أن أنسي عزف موتسارت ما حييت"

كان عام ١٧٨٢ من أسعد الأعوام في حياة موتسارت؛ ففي هذا العام أحرز نصرا مبينا على حاسديه وشانئي نبوغه، بتلحين أوبرا (المخطوفة من السراي) التي نالت من النجاح ما لا زيادة معه لمستزيد، وفي هذا العام أيضًا عقد قرانه على حبيبته (الثانية) كونستانس فيبر في حفلة بسيطة مؤثرة. وقد روى موتسارت في خطاب منه إلى والده أنه حين نطق القسيس صيغة العقد الزوجي انهمرت دموع زوجته وانهمرت دموعه أيضًا، فلما رأى الحاضرون والقسيس شدة انفعالهما بتأثير الفرح شاطروهما البكاء.

على أن عوادي البؤس لم تلبث أن عدت على هذ ا الزواج بين الحبيبين السعيدين؛ فقد مرضت الزوجة مرضًا ألزمها الفراش قرابة العام ونصف العام ونزل الضيق المالي بالفنان النابغة – أو على الأصح اشتدت وطأة هذا الضيق – حين رأى أعضاءً جددًا يزيدون عبئه، هم أولاده الستة.. ثم دفع الهم ذلك الفنان المكدود المعاني إلى خلان مالوا به إلى حياة فيها شيء غير قليل من اللهو والمجون، وسقطت روايته العظيمة (أفراح فيجارو) أو بعبارة أدق لم تفز بالنجاح الذي كان يحلم به موتسارت، ورجحت كفة الموسيقيين الطليان الذين رأوا في موتسارت خطرًا

على قوتهم ومكانتهم في النمسا؛ فتآلبوا عليه دسائسهم ومناوراتهم وعملوا على هدمه، ثم أضيف إلى هذا كله ما ألقي على كاهل موتسارت من ديون لا يكاد يعرف لها حدًا حتى نغص الدائنون صفو حياته وحياة أسرته، وأصبحت هذه الديون مضغة الأفواه حتى في بلاط الإمبراطور ، وقد سأله الإمبراطور يومًا:

– لماذا لم تتزوج امرأة غنية؟

فأجابه موتسارت بأنفته المأثورة:

– مولاي، إنني أعتقد أن عبقريتي ستمكنني دائمًا من الإنفاق على المرأة التي أحبها.

في سنة ١٧٩١ بينما موتسارت يلحن الأوبرا الخالدة (الناي الساحرة) أصيب بأعراض كانت نذيرًا بانحلال قواه وإشرافه على النهاية، فقد كانت تعتريه من وقت لآخر في أثناء دأبه على التلحين ليل نهار نوبات متوالية من الإغماء تستغرق كل منها عشر دقائق، وبدت عليه علائم الضعف والهزال حتى اضطر في شهر يونيو من هذا العام أن يكف مؤقتًا عن التلحين، ويقوم برحلة قصيرة إلى بادن انتجاعًا للصحة، ثم عاد وأتم هذه الأوبرا في شهر يونيو، ولكنه أدخل عليها بعض التعديل والتهذيب قبل تمثيلها في آخر سبتمبر.

وفي أوائل أغسطس من ذلك العام وقع حادث من أعجب الحوادث التي تعج بها حياة موتسارت؛ فقد دخل عليه زائر مجهول، ودفع إليه خطاباً غفلًا من أي توقيع يسأل فيه كاتبه عما إذا كان موتسارت يقبل تأليف

لحن حزين، وإذا كان الرد بالإيجاب فمتى يفرغ من هذا اللحن وماذا يطلب في مقابل ذلك من أجر؟ فدعا موتسارت زوجته وأطلعها على مضمون الخطاب فأشارت علية بالقبول، وعندئذ كتب موتسارت ردًا يلبي فيه رغبة صاحب الخطاب المجهول، ويحدد أجره! ولكنه اعتذر عن تحديد الموعد الذي ينتهي فيه عمله، واستفسر عن العنوان الذي يستطيع أن يرسل به اللحن المطلوب عند الفراغ منه، فعاد الزائر بعد أيام قلائل ودفع نصف الأجر الذي قدره موتسارت قائلًا إن النصف الثاني سيدفع مع هدية قيمة حين يتم اللحن. وقبل أن ينصرف الزائر نصح للموسيقي الكبير ألا يضيع جهده عبثًا في محاولة الوقوف على اسم صاحب الخطاب.

ولم يكد موتسارت يمضي في وضع اللحن حتى اضطر إلى الانصراف عنه مؤقتًا إذ طلب إليه فجأة أن يلحن أوبرا بمناسبة تتويج الإمبراطور ليوبولد في براغ، وبينما هو وزوجه يركبان عربة السفر إلى العاصمة البروسية إذا بالزائر الغريب يظهر، ويسأل موتسارت عما فعل باللحن؛ فيعتذر له ويعد بأن ينصرف إلى إتمامه عقب عودته وقد قضى موتسارت مدة إقامته في براغ مريضًا لا ينقطع عن تناول العقاقير، فلما آن أوان الرحيل ودع أصدقاءه ومعارفه باكيًا، إذ كان يحس إحساسًا غريبًا بأنه يتزود منهم ويتزودون منه بالنظرة الأخيرة.

وعاد موتسارت إلى فيينا؛ فعكف على وضع اللحن الحزين، وقد استولت عليه حال من الكآبة أقضت مضجع زوجه وأقلقت أصدقاءه، وكان قد وقع تحت تأثير اعتقاد غريب، هو أن خصومه جرعوه السم، وبهذا صارح زوجه إذ فاجأها يومًا بالحديث عن الموت واقتراب أجله قائلًا

أنه لا يكتب اللحن الحزين للزائر الغريب، ولكنه يكتبه لنفسه، فلما حاولت صرفه عن هذه الأفكار السوداء أجابها بقوله: لا.. لا إنني أشد ما يمكن اقتناعًا بأنني لن أعيش طويلًا، لقد سموني بغير شك، وليس في الإمكان أن أتخلص من هذا الاعتقاد.

إزاء هذا الأثر النفسي السيء الذي أثاره تأليف اللحن المشئوم حالت زوج موتسارت بينه وبين المضي في تأليفه، حتى إذا استرد مرحه قليلًا ألح في أن يتمه، ولكنه لم يكد يستأنف تأليفه حتى عاوده المرض واشتدت وطأته عليه، ولم يفارق هذا اللحن ذهنه حتى في النزع الأخير؛ إذ طلب إلى أصدقائه المحيطين بسريره أن يغنوه إياه، وقد كانت آخر كلماته الأخت زوجته: "لقد صنعت أخيرًا بحضورك فيجب أن تبقي هنا الليلة لتشهديني أموت" فلما حاولت صرفه عن هذا التفكير أجابها: "إن طعم الموت على لساني فعلًا.. إنني أتذوق الموت."

وفي هذه الليلة ١٥ ديسمبر سنة ١٧٩١ ألقى نظرته الأخيرة على اللحن الحزين، ثم قال وهو يطبق جفونه على دموعه المترقرقة في عينيه:

- ألم أقل لكم أنني كنت أكتب هذا لنفسي

ودفن موتسارت في إحدى مقابر فيينا كما يدفن أي مخلوق عادي، فلما أريد إقامة نصب له بعد عشرين سنة من وفاته، لم يستطع أحد أن يدل على رفاته.

وليم بت

فى سنة ١٩٣٥ على وجه التحديد، لم تجد الوزارة البريطانية بدا من إسناد وزارة الخارجية فيها إلى وزير غير وزيرها، وإذ ذاك سير صمويل هور، وذلك لأسباب تتعلق بموقفه إزاء الحرب الإيطالية الحبشية؛ فلم يكد يستبين هذا الاتجاه من ناحية الوزارة البريطانية، حتى أخذت الصحف تردد أسماء يرجح أن يختار من بين أصحابها الوزير الجديد، وفي مقدمة هذه الأسماء اسم الوزير السابق مستر أنتوني إيدن، ولكن قيل حينئذ أن عقبة كبيرة قد تحول دون اختيار مستر إيدن، ولم تكن تلك العقبة متعلقة بكفاءة الرجل أو مكانته بل كانت تتعلق بسنه، فهو لم يكن إذ ذاك قد جاوز التاسعة والثلاثين من العمر. ولولا ما كان مستر إيدن قد نال من توفيق ظاهر في مهامه السياسية قبيل ذلك الوقت، ولولا عوامل شتى من تأييد الدوائر ذات النفوذ لترشيحه، وفي مقدمة هذه الدوائر جريدة التيمس صاحبة الشأن والنفوذ العظيم – نقول لولا هذا كله لكان جد محتمل أن يظل الرجل حيث كان لمجرد أنه لم يجاوز التاسعة والثلاثين، أو هو قد جاوزها بقليل، ولم تجر التقاليد بأن يلقى عبء الوزارة الخطير على رجل في مثل هذه السن الباكرة..

هذا حادث لا نزال نذكره، وهو غني عن التعليق في الدلالة على مبلغ ما للسن من اعتبار في تقليد الوزارات والترشيح لها، وليس في ذلك غرابة، ولكن الغريب حقًا هو أن يستطيع شاب في الثالثة والعشرين من عمره أن

يحطم هذه العقبة الطبيعية تحطيمًا، وأن يتولى وزارة من أخطر الوزارات شأنًا في بلد غني بالأكفاء والسياسيين الدهاة مثل إنجلترا. ثم لا يقف طموح هذا الشاب عند ذلك، بل لا يكاد يتخطى الرابعة والعشرين من عمره حتى يرقى رياسة الوزارة البريطانية، ويستبقي لنفسه مع الرياسة أعباء الوزارة التي شغلها من قبل، وهي وزارة المالية ذات المسئوليات الخطيرة!

هذا الشاب هو وليم بت الذي كان في أواخر سنة **١٧٨٣** رئيسًا للوزارة البريطانية ووزيرًا للمالية فيها؛ أي أنه كان يقوم بالمجهود الذي كان يضطلع به في سنة **١٩٣٩** مستر بلدوين ومستر نيفيل تشمبرلين معًا. وكلاهما قد جاوز الخمسين بل شارف الستين، بينما لم يكن هو قد جاوز الرابعة والعشرين بكثير!

من هو وليم بت هذا؟ وما سر بزوغ نجمه في هذه السن الباكرة؟ وفي أي الظروف اختير؟ وماذا كان مبلغ توفيقه في الحكم؟.. هذه هي المسائل التي أريد أن أعالجها متوخيا الوضوح بقدر ما يسمح الحيز المقدر هذا الفصل في الكتاب.

***

وليم بت هو أصغر أبناء لورد تشاتام الذي كان أعظم سياسي إنجليزي في عصره، والذي يرجع إليه الفضل في انتصار إنجلترا في حرب السنوات السبع، وكان لورد تشاتام يلقب (بالنائب العظيم) وقد سما بمواهبه وحدها إلى قمة المجد والسلطان، وسجل لنفسه في التاريخ صفات عالية ورثها عنه ولده وليم بت، فكانت أكبر أسلحته في كفاح، السياسي المجيد، فقد كان

لورد تشاتام مطلق اللسان، قوي البيان ونبيل الطلعة، كريم الخلق، نقي الصفحة، نزيهًا في حياته الخاصة والعامة.. وكان إلى جانب ذلك قاسي الحملات على خصومه حادًا مريرًا في تهكمه وسخريته، وليس في هذه الصفات كلها صفة واحدة لم يرثها وليم بت ولم ينتفع بها في التغلب على في العقبات والصعاب الخطيرة التي واجهته في مستهل حياته في السياسية على وجه خاص، وفي هذا ما يفسر قول المؤرخين أن وليم بت كسب (نصف المعركة) بمجرد بنوته للورد تشاتام..

وقد نشأ وليم بت في محيط سياسي قلما أتيح لسواه، فإنه كان عريقًا في المجد السياسي من ناحية أبيه وأمه على السواء؛ فأمه من عائلة جريفيل التي تكاد تظفر بأكبر نصيب من الصلة بمناصب الوزارة المختلفة، وحسبك دليلًا على ذلك أن إخوتها الخمسة، خؤولة وليم بت، تولى أحدهم رياسة الوزارة وانتخب الآخرون جميعًا في أوقات متفاوتة في مجلس العموم، وتولى ثلاثة منهم عضوية المجلس الاستشاري للملك..

وكان وليم في طفولته حاد الذكاء خارق المواهب، وكان شديد الميل إلى الرياضيات والشئون السياسية، فلا غرو أن تكون حياته العامة فيما بعد قسمة بين الشئون المالية والسياسية.. وتروى عن بت في طفولته نادرة تدل على مبلغ تأصل روح الرجولة والطموح وحب الكفاح في نفسية لا يكاد يكون الشغل الشاغل فيها للطفل سوى اللهو وصغائر الأمور، وذلك أن بت حين كان في السابعة من عمره علم أن والده نال لقب اللوردية، فما كان منه إلا أن اغتبط أشد الاغتباط، لا لما نال والده من تشريف تقدير بل لأنه هو ليس أكبر أخوته سنًا فهو بذلك لن يرث

المنصب، ولا سيكون في قدرته أن يخدم وطنه بين جدران مجلس العموم (مثل بابا).

أليس صدور مثل هذا التفكير عن طفل في مثل هذه السن أقرب إلى شوارد الخيال، ومصنوع الروايات منه إلى الحقائق المسرودة على ألسنة الثقات؟.. بلى، ولكن كل ما حفظ لنا التاريخ عن حياة هذا الشاب الخارق النبوغ لا يجعلنا نصدق ما يروى عنه من غرائب وحسب، بل يكاد يميل بالطبيعي من تصرفاته إلى ناحية الشذوذ ومثار الاستغراب.

حينما كان بت في الثانية عشرة، وكان والده يرفعه على كرسي، ويدعوه إلى الخطابة في أهم موضوعات اليوم أمام جموع الزائرين والأصدقاء، وفي الثالثة عشرة ألف الغلام مأساة ذات خمسة فصول كان محورها السياسة والسياسيين.. ويقول اللورد "جون رسل" في كتابه عن "تشارلز فوكس" الذي كان يكبر بت بأعوام عشرة، وكان معارضا عنيدًا لبت طول حياته.. يقول اللورد جون رسل في كتابه هذا ما يلي:

"روت لي دوقة لينستر حديثًا كانت حاضرته لما جرى بين أختها ليدي كارولين ومستر فوكس (اللورد هولاند والد تشارلز) إذ نحت ليدي كارولين باللوم على زوجها لشدة ما يدلل أطفاله وبخاصة تشارلز، ثم قالت لقد كنت صباح اليوم في زيارة ليدي هستر بت، ورأيت هناك وليم بت ذلك الطفل الصغير الذي لم يبلغ الثامنة بعد، وإنه حقًا لأذكى طفل رأيته في حياتي، وقد لاحظت من الشدة في تربيته والدقة في سلوكه ما يجعلني أؤكد لك – وأرجو أن تفطن لما أقول: أن هذا الغلام سيكون شوكة في جنب

تشارلز طوال حياته.

فهذه الشهادة فضلًا عما تحمل من إعجاب شديد بنبوغ بت في طفولته تنطوي كذلك على نبوءة صدقتها الأيام على نحو ما نظن أن ليدي هولاند كانت تقدره. فكأن حين قالت لزوجها ما قالت كانت تستشف من وراء المستقبل صورة بت يناويء ولدهما ويشتد بينهما الخصام السياسي العنيف الذي استغرق أكثر من عشرين سنة بلا هوادة ولا هدنة.

لم يتلق بت تعليمه في مدرسة ما، ولكنه تعلم في بيته على أستاذه الخاص وأبيه العظيم. فلما أتم عامه الخامس عشر ألحق بجامعة كمبردج حيث درس ست سنوات كان فيها مثال الجد والدأب على التعمق في آداب اللغة الإنجليزية..

ويقول ماكولي أن معلوماته في اللغات القديمة والرياضيات كانت أوسع مما لم يكن يستطيع الإلمام به إلا القليلون ممن يكبرونه بسنوات ثلاث. وكان مولعًا على وجه خاص بدراسة نيوتن ومؤلفاته، ولم يكن في الجامعة كلها من هو أبرع منه ولا أسرع في حل معضلات المسائل الرياضية، ولم يكد بت يبلغ سن الرشد حتى كان يحتل مقعده بين النواب في مجلس العموم البريطاني!

وفي الثانية والعشرين من عمرة ألقى (خطبته العذراء) في مجلس العموم، وهي الخطبة التي افتتح بها حياته البرلمانية؛ فكانت خير فاتحة وأعظم بشير بما ينتظر هذا الشاب العجيب من مستقبل حافل جليل..

كان موضوع تلك الخطبة مشروع الإصلاح الاقتصادي الذي قدمه

إلى البرلمان النائب العالم الفيلسوف الاقتصادي إدموند بيرك، وقد وقف بت يوم تقديم هذا المشروع، أي يوم ٢٦ فبراير سنة ١٧٨١ فكان مدافعًا بارعًا عن المشروع ومؤيدًا صادقًا له. وقد أطرب بت أعضاء المجلس وأبهرهم بما أبدى إذ ذاك من ضبط النفس وطلاقة اللسان وحضور البديهة ونبيل الطلعة والمظهر، وليس أبين في الدلالة على مبلغ توفيق الخطيب الشاب في فاتحة خطبه من قول أحد مشاهير الأعضاء المحنكين: «لم يكن في الخطبة كلمة قيلت أو إشارة أبديت يصح أن تكون محلًا للملاحظة أو التصحيح"

وقال أدمون بيرك تعليقًا على الخطبة نفسها: «ليست هذه العصا من العصبية ولكنها العصبية نفسها!» يشير بيرك بذلك إلى وليم بت ليس شبيها بوالده تشاتام وحسب بل صورة كاملة حية لوالده (النائب العظيم)

كانت حرب استقلال أمريكا هي الشغل الشاغل للوزارة البريطانية والرأي العام في إنجلترا عندما دخل وليم بت مجلس العموم، فكان للنائب الشاب موقف فذ إزاء هذه الحرب المستعرة، وذلك أن والده لفظ النفس الأخير وهو يقاوم فكرة استقلال المستعمرات الأمريكية لما في ذلك من تمزيق الإمبراطورية البريطانية، ولكن وليم بت لم يكد يستقر في مقعده بين النواب حتى أعلنها حملة شعواء على سياسية إخضاع الأمريكيين وإذلالهم ومواصلة الحرب التي لم يجن منها البريطانيون شيئًا.. سوى سلسلة من تافه الانتصارات أو ساحق الهزائم انتصارات نحييها احتفالًا بهزيمة طارئة أنزلناها بإخواننا الذين نسعى لسحقهم وتمزيق شملهم. انتصارات تشيع في البلاد الأسى على الفجيعة في أبناء قرابتنا الأعزاء، أولئك الذين ذبحوا في سبيل

غاية دنيئة ترمي إلى فرض الذل والعبودية بغير ما قيد ولا شرط. بانتصارات تشيع في البلاد القصص والروايات عن مجيد الجهود التي يبذلها رجال يقاتلون في سبيل الحرية المقدسة..."

بهذا اللسان الطلق، وبهذه اللهجة الحارة الصادقة كان يخطب وليم بت في الثانية والعشرين من عمره مؤيدًا رجال المعارضة الفطاحل: فوكس، وأدموند بيرك، وشريدان، والجنرال كونوي. وقد اشتركوا في توجيه أعنف الحملات البرلمانية وأخطرها على اللورد نورث حتى طوحوا بوزارته بعد أن باعت بخذلان الرأي العام والبرلمان، فلما جاء الأوان لتوزيع الأسلاب والغنائم بين رجال المعارضة تنحى وليم بت وأبى أن يقبل الانتظام في عقد الوزارة التي ألفها لورد روكنجهام، وكان من أعضائها: مستر فوكس، ولورد شلبيرن، والجنرال كونوي وأسند فيها منصبان إلى بيرك وشريدان.

فهل أقطع في إظهار مكانة وليم بت في هذه السن الباكرة؟ وهل أدل على سمو نفسه واعتزازه بشخصه وثقته بمستقبله وكفايته من أن تعرض عليه الوزارة، وهو لم يبلغ الثالثة والعشرين من عمره، فلا يهرع إلى تقبلها ولا تأخذه اللهفة عليها ولا يجذبه بريقها، بل يعزف عنها ويرفضها حيث كان يتحسر عليها الكهول والشيوخ؟

على أن الوزارة لم تلبث أن أقبلت على وليم بت وانقادت إليه؛ فقد عاجلت المنية لورد روكنجهام في يوليو سنة ١٧٨٢ فرأس الوزارة من بعده لورد شلبيرن الذي كان يخالفهم في سياسة التسليم المطلق باستقلال أمريكا، ووقع اختيار شلبيرن على وليم بت ليكون وزير المالية وزعيم

الوزارة في مجلس العموم، وعمره إذ ذاك ثلاث وعشرون سنة.

إن وزارة شلبيرن لم تكد تعقد معاهدة فرساي، وتعترف باستقلال أمريكا حتى وجدت نفسها إزاء أشهر ائتلاف عرف في تاريخ التعاون العربي في إنجلترا وحسبك أن تعلم أن عنصري هذا الائتلاف هما الخصمان اللدودان: لورد نورث، وتشارلز فوكس؛ لتدرك مبلغ الدهشة التي قوبل بها هذا الائتلاف العجيب الذي دبرته المعارضة لا لشيء سوى كراهيتها الشديدة للورد شلبيرن. ولغير ما غاية سوى إسقاط وزارته وانتزاع الحكم من يديه. وقد تم للمعارضة ما أرادت؛ فهوت وزارة لورد شلبيرن عن كراسيها تدخل فوكس ونورث وبيرك الوزارة رغم أنف الملك جورج الثالث الذي قال عن ائتلاف المعارضة أنه "لا يوجد في تاريخ هذا الشعب أو أي شعب آخر ائتلاف أقل من هذا الائتلاف استنادًا إلى المبدأ والعقيدة".

وعاد وليم بت إلى مقعده في مجلس العموم معارضًا صارم القول قوي الشكيمة، ولكن الوزارة كانت موفورة الأغلبية منيعة الجانب، وعبثا حاول وليم بت أن يحمل أغلبية البرلمان على فصم عرى «زوجية مشئومة الطالع واضحة الشذوذ"، وعبثًا حاول صد الوزارة عن سياسة عقد القروض بأفدح الشروط، ولكنه لم ينثن يومًا واحدًا عن مواصلة العمل البرلماني: تارة لإصلاح الدستور، وتارة لعرقلة المشروعات الوزارية التي يراها خطرًا على المصلحة العامة.

وكان جورج الثالث من ناحية أخرى يتحين الفرصة للخلاص من وزارة فوكس ونورث، ويتلمس لذلك الوضع الدستوري الذي يحتمي وراءه

لتحقيق ما يريد. وسرعان ما سنحت الفرصة المنشودة وقدمت الوزارة مشروع قانون بتنظيم حكومة الممتلكات البريطانية في الهند، ومراقبة أعمال شركة الهند الشرقية، وإذ بالمشروع يقضى بإسناد الإشراف الفعل على شئون شركة الهند الشرقية إلى سبعة مندوبين يتولون مناصبهم أربع سنوات ولا يجوز عزلهم بحال من الأحوال، وينص المشروع على أسماء هؤلاء المندوبين، فإذا أربعة منهم قد اختيروا من أنصار فوكس، والثلاثة الباقون من أنصار لورد نورث، وظاهر من هذا أن الغرض هو ضمان الحكم للمعارضة في الهند مدة أربع سنوات على الأقل مهما يكن نصيبها في إنجلترا من النجاح..

وقد نجحت الوزارة في الظفر بموافقة مجلس العموم على هذا المشروع، وهنا لم يسع الملك أن يقف مكتوف اليدين، بل خرج عن الحياد التقليدي ووقف موقفه المشهور الذي جعل بعضهم يصرح إذ ذاك بأنه يعيد إلى الأذهان موقف شارل الأول سنة ١٦٤١ وقد دفع شارل رأسه ثمنًا لذلك الموقف..

لم يعد مشروع القانون يمر في مجلس العموم، ويحال إلى مجلس اللوردات، حتى استدعى الملك إليه أحد أعضاء المجلس الأخير وسلمه تصريحًا كتابيًا يخوله فيه الحق أن يقول لمن يشاء من اللوردات أن من يوافق على مشروع القانون لا يكون فقط من غير أصدقاء الملك بل يعتبر عدوًا شخصيًا له.

وكانت نتيجة هذا الخروج الصريح على التقاليد الدستورية، أن ظفر

الملك بأمنيته وهزمت الوزارة في مجلس اللوردات بأغلبية خمسة وتسعين صوتًا ضد ستة وسبعين، وكان ذلك في ١٧ ديسمبر سنه ١٧٨٢.

وفي ١٨ ديسمبر بعث الملك عند منتصف الليل برسالة إلى الورد نورث ومستر فوكس طالبًا منهما أن يردا إليه أختام الحكم بوساطة وكلاء الوزارات لأن جلالته لا يحب مقابلتهما بشخصه.

***

وإذا كان المؤرخون قد اتفقوا على مؤاخذة الملك جورج الثالث، لتدخله غير الدستوري سعيًا للخلاص من وزارة فوكس، ونورث، فقد اتفقوا أيضًا على أنه أصاب أعظم السداد ونهج منهج الحكمة إذ سلم دفة البلاد إلى وليم بت؛ فقاد السفينة بمهارة ووطنية وإخلاص في أحرج الأوقات والظروف.

على أن بت في الشهور الأربعة الأولى من حكمه كان في موقف لا يحسد عليه. نود قبل أن نشرح للقارئ هذا الموقف الخطير أن نروي الحادث التالي لما يلقى من ضوء على شخصية وليم بت وصفاته وبهذا الضوء يستطيع الإنسان أن يهتدي إلى السر في انتصار مثل هذا الشباب على خصومه وتغلبه على عقبات تفت في عضد المحنكين أنفسهم من رجال الحكم والسياسة.

دار الحديث ذات يوم في مجلس كان من حضوره وليم بت حول رياسة الوزارة، وألزم الصفات التي يجب أن تتوفر في من يلي هذا المنصب حتى يوفق في النهوض به؛ فقال أحد الحاضرين أن ألزم هذه الصفات طلاقة

اللسان، وقال آخر: بل في الثقافة، وخالفهما ثالث فقال: إن ألزم ما يلزم رئيس الوزراء هو الجلد على العمل.

ولكن وليم بت خالفهم الرأي بقوله:

- كلا بل ألزم من ذلك كله الصبر

وسيرى القارئ فيما يلي كيف كان الصبر، بما يحمل في طواياه من ضبط النفس، هو الميزة الكبرى التي تذرع بها وليم بت فتحطمت عليها موجات الهجوم الجبارة التي كادت تكتسح وزارته وتجرفها في مستهل أيامها العصيبة، وسجل لنفسه موقفا في أخطر صراع دستوري على الحكم في تاريخ البرلمان الإنجليزي. وكأنما أبى القدر إلا أن يمتحن هذا الشاب بأقسى ما يمتحن به إنسان يستقبل حياة العمل والجلاد.

في ١٩ ديسمبر أسندت إلى وليم بت رياسة الوزارة ووزارة المالية، وكان طبيعيًا أن تفتقر وزارة يرأسها شاب في الرابعة والعشرين من عمره إلى العناصر ذات الصيت الطائر أو النفوذ القوي؛ فلم يكن بين أعضاء الوزارة رجل يمكن أن يعتمد بت على معاونة جدية منه سوى لورد تمبل.

وتأبى الظروف القاسية إلا أن ينتفض لورد تمبل على وليم بت بعد ثلاثة أيام من تأليف الوزارة؛ فقد كان من رأيه أن يكون أول عمل الوزارة حل البرلمان في الحال وخوض معركة انتخابية يتقرر بها المصير؛ فإما بقاء في الحكم بالأغلبية، وإما مغادرة منصة الحكم طبقًا للدستور. ولكن وليم بت خالفه الرأي وأبى إلا أن تعتصم الوزارة بالشجاعة والصبر وتواجه البرلمان

القائم وتتبين نتيجة ما تبذل من جهد لكسب عطف النواب فبادر لورد تمبل إلى الاستقالة في ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٨٣

وبهذا قضي على وليم بت أن يواجه الموقف وحده، وينقذ وزارته وسمعته بصراع لا معين له فيه، ولا عون حتى على أقلية تذكر في مجلس العموم.

كان بت هو النائب الوحيد في الوزارة، أما الستة الباقون فكانوا كلهم من أعضاء مجلس اللوردات وكانوا جميعا بين رجل محدود الكفاءة وآخر تنقصه حرارة الولاء والإخلاص.

وكان على الوزارة – أو بعبارة أخرى كان على وليم بت – أن يواجه في مجلس العموم أغلبية ساحقة نافرة يتزعمها ثلاثة هم اقوى رجال السياسية آنذاك بأسا وسطوة، أولهم تشارلز فوكس بما اشتهر عنه من قوة مرهوبة في الجدال والإحراج، والثاني أدموند بيرك بما كان عليه من علم واسع وتفكير عميق، والثالث اللورد نورث بكل ما أوتي من حنكة سياسية وخبرة طويلة في أصول الحكم.

وكان على الوزارة إلى هذا كله أن تحتمل أشد أنواع السخرية وأمر عبارات التهكم والاستهزاء تجري على السنة المتحذلقين وغيرهم من الذين يستهوون العامة بألوان الفكاهات اللاذعة على حساب الوزير الشباب الجديد. كانوا يذيعون المقطوعات الشعرية يتندرون فيها (بالتلميذ الذي ألقيت إليه مقاليد البلاد كما وصفه أحدهم في مقطوعة قصيرة يقول فيها ما ترجمته الحرفية!!.. يا له من مشهد تحملق الشعوب المحيطة بنا دهشة له

مشهد مملكة يعهد برعايتها إلى تلميذ صغير.

وجاء اليوم الأول من أيام المحنة الدستورية الخطيرة يوم **١٣** يناير سنة **١٧٨٤** عقد مجلس العموم في جو مكهرب تسوده روح النفور من الوزارة والسخرية من الوزير (التلميذ) وتحدي الملك الذي يظاهر هذا الحدث الصغير. وظهر وليم بت في قاعة المجلس على رأس حكومته، ولم تكد تفتتح الجلسة ويعطي الأعضاء الكلمة حتى انهالت على الوزير والوزارة الحملات، وظهرت أغلبية المجلس ضد الوزارة في اقتراعين متواليين في هذه الجلسة، ووافق الأعضاء على خمسة قرارات ضد وليم بت في الليلة نفسها.

وتوقع الجميع للوزارة الفشل الذريع والسقوط الذي لا قيام بعده، وبهذا نفسه تنبأ جيبون المؤرخ المشهور. ولكن بت لم يفقد روحه المعنوية رغم هاتيك الهزائم المتوالية، وقد كتب إليه الملك في اليوم التالي يقول "إنني مستعد لاتخاذ أية خطوة تقترح لمقاومة هذه الحملة ومواصلة الكفاح إلى آخر رمق من حياتي في هذا السبيل"

فهل سارع (التلميذ) الذي يرأس الوزارة إلى الملك يشير عليه بحل البرلمان والنزول مع المعارضة إلى ميدان الانتخاب الذي كان المال إذا ذاك من أقوى أسلحة الفوز فيه؟

معاذ الحكمة والفطنة والرأي السديد، بل معاذ الصبر الذي كان يؤمن به وليم بيت إيمانا يزعزع شامخ الجبال. تذرع بت بالحكمة والصبر فلم يعبأ بهزيمته في المجلس وعاد بعد يومين اثنين يحمل إلى النواب مشروعا وضعه هو لإدارة شركة الهند الشرقية فقرأ المشروع قراءة واحدة، ثم اجتمع

المجلس على هيئة لجنة للنظر في حالة البلاد ومصيرها، وأصدر قرارا رهيبا ينص على ما يأتي: "إن استمرار الوزراء الحاضرين في الاضطلاع بأعظم الشئون أهمية ومسئولية أمر يخالف المبادئ الدستورية ويضر بمصالح جلالة الملك وشعبه"

ولكن حتى هذا القرار الرهيب لم ينل من شجاعة وليم بت وأناته فاستمر الوزير الشباب معتصما بحبل الصبر يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع، واستمر على جلده وكفاحه من ١١ يناير إلى ٨ مارس وهو يلتزم في تصرفاته الحكومية أقصى حدود النزاهة ونظافة اليد وأصالة الحكم، ثم هو يكافح في الوقت عينه كفاح المستميت للتخفيف من حدة الخصومة التي يلقاها من أعضاء البرلمان، ولعل أشهر خطبه وأروعها بين جدران مجلس العموم خلال هذا النضال المستعر، خطبته التي قام يرد بها حملة المعارض الخطير تشارلز فوكس عقب صدور قرار البرلمان بمخالفة بقاء الوزارة لمبادئ الدستور، وإنك لتلمس في هذه الخطبة قوة البيان وبراعة القول وصدق اللهجة وحرارة الإيمان الذي تسنده وتدعم أركانه طهارة اليد وسلامة الطوية.. انظر إلى هذا كله كيف يتجلى في قوله يومئذ.

وهل جرى على لساني يا سيدي الرئيس – والخطاب لرئيس المجلس – ما جعلني خليقا أن أوصم بإيثار منصبي الخاص على الصالح العام؟ لقد ناديت يا سيدي مرة بعد أخرى أن اثبتوا لي أن هناك أي أمل منظور، بل دلوني على أبعد آيات الرجاء في أن يؤدي تقديم استقالتي بحال من الأحوال إلى عودة السلام والسعادة إلى البلاد، وعندئذ أبادر إلى استقالتي في الحال! ولكني ناديت يا سيدي في الوقت نفسه بأنني لن أتقدم

باستقالتي تمهيدا للمفاوضة مع المعارضين، ولن أتخلى عن منصبي لأرمي بنفسي تحت رحمة ذلك السيد الوافر الاحترام (يقصد تشارلز فوكس) إنه يدعوني الآن وزيرا بمجرد الأسهم ويصفني بأنني مجرد دمية يحركها نفوذ سري من وراء ستار! ولكن لأنني يا سيدي أرفض أن أكون وزيرًا بمجرد الاسم، ولأنني آنف أن أكون دمية يحركها دنت السيد الجليل الاحترام، فإني أرفض أن أستقيل.. إني أقسم لكم بشرفي وسمعتي أني لن أندم على الاستقالة بحالة من الأحوال، فليحاذر هذا المجلس أن يبيح لأي إنسان أن يدخل مأربه الشخصي وينسج مصالحه الذاتية في قرارات مجلس العموم، إن كرامة المجلس هي وحدها الملجأ والملاذ، فلنحادر أن يكون الملجأ إذن كرامة أي مجموع الناس، فلنحاذر أن يكون للأحقاد الشخصية نصيب في الحكم على هذه المسائل الدستورية العظمى إن للسيد الجليل الاحترام (يعني فوكس) قدرة على أن يضفي بفنونه الساحرة جمالا يزين به القبيح، فهو يضع أمام أعينكم صورة جميلة خادعة، ثم يدفعها إليكم لتفحصوها بعين التدقيق، ولكنكم لا تكادون تقربونها، حتى يختفي الشبح الخاشع، ويزول طيف الحرية الجميل لتجيء في أعقابه الفوضى والاضطراب ودماء الدستور.

ذلك أن الحق يا سيدي هو أنه إذا كان الاستقلال الدستوري التاج سيدفع إلى شفا التمزيق؛ فأين إذن ما تفاخر به من توازن في الدستور مما يكن الآن من فظاعة الصراع، فإن ضميري وواجبي ووثيق رعايتي لدستور أجدادنا تدعوني كلها إلى الثبات في موقفي العصيب، ولست اتشبث بمنصبي مدفوعا بأي استكبار أو هزأ أو تحد للقرارات الدستورية التي

يصدرها هذا المجلس، ولا أنا أتشبث به لأمر شخصي يتعلق بالشرف ولا أنا مستمسك به لأي مطمع في سلطان الحكم وجاهه.. ولكن الحالة الراهنة تقتضيني، بل أزيد فأقول أن البلاد كلها تناديني أن أكون حامي هذا المعقل، ولقد صحت عزيمتي لذلك على أن أكون حاميه..

بهذا اليقين الصادق، وهذا اللسان الغضب احتمل وليم بت ما احتمل في الأشهر الأولى من حكمه حتى قدر أخيرا أن يظفر بالتأييد المنشود، ويفل من حدة المعارضة. وساعده على النجاح في كفاحه الخطير أمور ثلاثة : أولها ترفعه عن أن يستولي على إيراد سنوي قدره ثلاثة آلاف جنيه من منصب فخري كان الناس جميعا يتوقعون أن يقيله وليم بت لفقره وقلة موارده، ولكنه فاجأ البلاد بتحويل الإيراد إلى صديقه الفقير الأعمى الكولونيل باريه، وقطع عنه بذلك الإعانة التي كان يتناولها من خزانة الدولة، وحدث بعد ذلك أن وليم بت يستقل عربته إلى ميدان باركلي، فهاجمه بعض الرعاع على مقربة من نادي بروك في شارع سان جيمس، وهو النادي الذي كان يتردد عليه تشارلز فوكس، وقد كان من حسن حظ بت أن كان معه أخوه، فوقاه عدوان المعتدين، ومكنه من الاحتماء في نادي هوايت بالشارع نفسه، وكان هذا العدوان السياسي الرخيص سببا في سخط فريق من الرأي العام على المعارضة وعطفهم على بت..

أما ثالث الأمور التي ساعدت الوزير الشاب في كفاحه فهو شطط المعارضة وانسياقها بدافع الخصومة الشخصية إلى انتقاد كل شيء حتى ضاعت قيمة معارضتهم في نظر الجمهور..

لهذا كله لم يكن عجيبا أن يسحق وليم بت المعارضة حين حل البرلمان في أبريل سنة ١٧٨٤ وخاض معركة الانتخابات التي فقدت المعارضة فيها مائة وستين مقعدا، وسمى الأعضاء الذين فقدوا مقاعدهم في هذه الانتخابات "شهداء فوكس"، ودخل وليم بت مجلس العموم في ١٨ مايو فلم يعرف في تاريخ بريطانيا وزير دخل البرلمان بمثل الانتصار الباهر والمظاهر الحماسية الخلابة التي ظفر بها وليم بت في ذلك اليوم المشهود، وقد استقر له الأمر بعد ذلك، فأدار دفة بريطانية سبعة عشر عاما كاملة..

إلى هنا لا أجد بدا من اقتضاب الموضوع لضيق المقام مكتفيا بأن أقول إن وليم بت في رئاسية الوزارة ووزارة المالية قد امتاز بآيات بينات من الحزم والجرأة والكفاءة والتفاني في الإخلاص، وأشهر ما يؤثر عنه أنه كان بطل المخالفات التي واجهت بها إنجلترا نابليون بونابرت، وفي عهده أحرز نلسون أبهر انتصاراته في موقعة الطرف الأغر.

ويرى بعض المؤرخين أن وليم بت قضى نحبه حزنا وأسي بسبب ما تحطم من آماله حين انتصر نابليون في ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥ في موقعة أوسترليتز. وقد أسلم الروح في يناير سنة ١٨٠٦ بعد أن ملأ القلوب.. والأسماع سبعة عشر عاما في بلاده وخارج بلاده على السواء.

جون كيتس

وراحمتاه للغريب في البلد النازح، ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه، فما انتفعوا بالعيش من بعده، وما انتفعا

***

روما...

بيازا دسبانيا (ميدان إسبانيا)...

فبراير سنة ١٨٢١

في غرفة متواضعة بأحد المنازل المشرفة على الميدان، يرقد شاب في الرابعة والعشرين من عمره، قد اصطلحت عليه نوائب الهموم وفواتك العلل والآلام.

كان طموحا إلى المجد، ولكنه لم يلق سوى الجحود والنكران، وكان في غضارة العمر، ولكنه وقع فريسة السل فلم يهنأ بلذة الشباب .. وكان ينشد البرء فعاجله القدر بحب لاعج أحرق مهجته وأصلاه من نيرانه ما ضاعف عليه العلة ومضى به حثيثا إلى الصرع الأليم المحتوم ..

ذلك هو جون كيتس، الشاعر الشاب الخالد الذكر الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في روما، غريب الوجه واليد واللسان، نائياً عن أحبابه، مجحودا من قومه، فقيرا يستدر عطف طبيبه فيعالجه لوجه الإنسانية ثم يدخل عالم الأبدية، ولا أمل من حوله ولا خلان اللهم إلا رجلا نبيلا واحدا وهب

وقته وراحته وما يملك في سبيل السهر على هذا العبقري البائس المجحود.

كتب الشاعر الناقد الإنجليزي المشهور (روبرت بردج) يقول:

– لو استطعنا اليوم أن ندعو من عالم الموت شاعرا إنجليزيا واحدا ليتم ما تركه من عمل يحتاج إلى تمام، لوضعت إنجلترا تاج اختيارها على رأس جون كيتس!

ومع ذلك فإن كيتس ظل في حياته وبعد سنين طويلة من مماته عرضا للمنتقصين من نبوغه، وهدفا للتهجمين على عبقريته، حتى لقد استباح توماس ديكوينسي لنفسه وهو ما هو تضلعا في اللغة الإنجليزية وأسلوبها، أن يقول في سنة ١٨٤٥

– لقد داس كيتس لغة أمهاتنا لغتنا الإنجليزية هذه لا كما لو كان يدوسها بأظلاف جاموس.

وغني عن البيان أن النقاد اليوم قد عرفوا لكيتس مكانه وعبقرتيه، فلم يقدموه في الأسلوب الرفيع على دي كوينسي وحده، بل إنهم ليكادون يجمعون على إحلاله في المرتبة التي تلي شكسبير وملتون، ويقدمونه على كل من عداهما في روعة التعبير وعذوبته..

ولد جون كيتس في ٢٩ أكتوبر سنة ١٧٩٠ في عائلة متوسطة الحال، فلم يكد يبلغ التاسعة من عمره حتى قتل أبوه إثر سقوطه عن جواده في سنة ١٨٠٤ وتولت أمه رعايته هو وإخوته الثلاثة: جورج، وهو الأكبر، وتوماس، وكان أصغر من جون، وأختهم التي كانت تصغر الجميع، وقد ورث جون عن أبيه ملامحه وبنيته وخلقه الهادئ السليم، ولكنه لسوء الحظ

ورث عن أمه أتعس ميراث، وهو مرض السل الذي أودى بحياته قبل أن يتم ربيعه الخامس والعشرين!

على أن هذا لا يعني أن جون عاش حياته هزيلا، ضعيف البناء، خائر القوى، فتلك هي الصورة الخاطئة التي ساعد على ذيوعها صديقة الشاعر العظيم شيلي، حين استفزته عاطفة الجزع لموته، فهاجم الكاتب الذي انتقد قصيدة من قصائد كيتس ووصف هذا الكاتب بأنه (قاتل) مجاراة للاعتقاد الذي كان قد ساد أن ذلك بأن كيتس قضى نحبه لشدة تأثره بذلك النقد الذي نشر عن قصيدته.

والواقع أن كيتس إنما راح ضحية السل، رغم ما يؤثر عنه من أنه كان في أيام دراسته الأولى ممتلئا حيوية طالما دفعته إلى الاشتباك مع إخوانه وزملائه في مشاجرات لا تكاد تنتهي حتى تبدأ، ولقد كانت حيوية كيتس، وبراعته في أنواع الرياضة العنيفة، وكثرة اشتباكه مع إخوانه في المشاجرات والمعارك اليدوية، وتمسكه بآرائه وإصراره على تنفيذ ما يشاء كانت هذه كلها جعلت عارفيه في تلك الفترة الأولى من سني الدراسة يتوقعون له مستقبلا عظيما. ولكن في ميدان الحرب أو نحوه من ميادين الحياة العاملة النشيطة لا في حظيرة الأدب الهادئة الوادعة! كما يقول الكاتب الأديب هولمز رفيقة في أيام المدرسة.

على أن كيتس كان يجمع إلى طبيعته الثائرة الصلبة المشاكسة حسا مرهفا، وعاطفة مشبوبه نبعت منها في مستقبل الأيام شاعريته الفذة الصافية المنهل؛ فلقد كانت عواطفه تتبدل من حال إلى نقيضه في دقائق

معدودة، فبينما هو ضاحك مشرق الأسارير لا يكاد يعرف لاغتباطه حد، إذا هو شديد الحزن منقبض الصدر منهل العبرات في لحظات متعاقبة، ويؤثر عنه من قبيل الإفراط في الأسى أنه حين توفيت أمه فجأة سنة ١٨١٠ قبع تحت مكتب أستاذه أياما عدة، مستسلما للأسى الفاجع، غير متأس بعزاء أساتذته وإخوانه المقربين.

لم يكد يمضي على كيتس زمن قصير في مدرسته، حتى زالت عنه عوارض المشاكسة التي كانت مستولية عليه، وحلت محلها بوادر الولع بالدراسة والتحصيل، فنال كل الجوائز الأولى في الأدب، وعزف عن كل ما كان حبيبا إليه من ضروب التسلية واللهو، وعكف على ترجمة فرجيل وفنلون إلى الإنجليزية في أوقات الفراغ التي كان يقضيها إخوانه جميعا في الترويح عن النفس، حتى لقد كان أستاذه يدفعه رغم أنفه في كثير من الأحيان إلى مغادرة غرفته التماسا للهواء الطلق، فكان كيتس يأبى إلا أن يتناول في يده كتابا يطالعه في أثناء نزهته، وبذلك كان يجمع بين واجب الطاعة لأستاذه وشهوة الاستزادة من الدرس والاطلاع، وفي هذه الفترة المبكرة عرف كيتس اللاتينية، ولم يكن قد بدأ يتعلم اليونانية، فلم يصرفه ذلك عن الأدب الإغريقي، بل لجأ إلى ما ترجم منه إلى الإنجليزية، ثم قرأ إلى جانب ذلك قصة روبنسون كروزو، وبدأ يغترف من منهل شكسبير العظيم، وليس أدل من مبلغ الخصوبة في خياله من قوله لأحد زملائه في المدرسة ما ذاك، وإنني أعتقد أن أحدا من الناس لا يجرؤ على مطالعة (ماكبث) وهو وحيد في المنزل عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

وقبل أن يتم كيتس تعليمه في هذه المدرسة – مدرسة مستر كلارك–

كان قد فقد آخر أقاربه فعهد بتربية الإخوة الأربعة إلى رعاية تاجر يدعى مستر أبي، وكان ما بقي لهم جميعا من مال لا يزيد على ثمانية آلاف من الجنيهات، فلما ترك كيتس مدرسة كلارك في صيف سنة ١٨١٠، أي في الخامسة عشرة من عمره، أرسل لدراسة الطب خمس سنوات عند جراح على جانب من الشهرة في أدمونتون يدعى مستر هاموند، ويظهر أن أحدا لم يستشر كيتس في شأن مستقبله، وإنما أرسل لدراسة الطب فامتثل، ولعله لو سئل ماذا يختار لفضل متابعة ما كان قد أخذ فيه من دراسة أدبية، وآثر تأليف التحف الفنية على تشريح الجثث البشرية!

على أن القدر كان رفيقا بكيتس في ناحية لعلها الوحيدة التي نستطيع أن نحس فيها رفق الشعر في حياته المترعة بصنوف القسوة وألوان السخرية والجحود، ذلك أن أدمنتون لم تكن تبعد كثيرا عن أنفيلد، فبقيت أواصر التعارف معقودة بين كيتس وأسرة مستر كلارك، ثم توثقت عرى الصداقة بينه وبين تشارلز كاودن كلارك، نجل رب الأسرة، وهو شاب كان يكبر كيتس بسنوات قلائل، ولكنه كان يتفق معه في المشرب الروحي والفكري، وكان على ما يظهر قوي الشخصية واسع الاطلاع؛ فانتفع كيتس بهذه الصداقة إلى أبعد حد، وقد سجل أمام التاريخ دينه لصديقه في احدى عيون مقطوعاته، وهي المعنونة (إلى تشتارلز كادون كلارك)

ويظهر أن تشارلز كلارك كان مجودا في مطالعة الشعر، ولهذا استطاع أن يترك في ذهن الشاب الشاعري الخيال والعاطفة صورا دقيقة لخصائص كل نوع من أنواع الأوزان كما كان يحفز صديقه إلى مطالعة الملاحم التي تصف وقائع البطولة الوطنية الخالدة.

ولا غرو، فما كان كيتس ليغترف من مناهل الأدب الإنجليزي واليوناني، لولا هذا الاختلاط الاجتماعي الذي تمتاز به الحياة الغربية عامة، والإنجليز بنوع خاص. ومثل كيتس هنا كمثل شكسبير، لا يتبحر في الأدب من طريق البرامج المدرسية، بل من طريق الصلات الاجتماعية، فكان كيتس يتلقى دراساته الأدبية عن طريق تشارلز كلارك، كما كان هذا في دوره يتلقى كثيرا من الدراسات على يدي مدينة الأديب السياسي المشهور لي هنت، في أثناء تجواله بالغابات ذات الظل الظليل والسكون الرائع المرهوب!

بعد أن قضى كيتس فترة التمرين الطبي في أدمنتون انتقل إلى لندن لممارسة مهنته بأحد المستشفيات سنة ١٨١٩ وأتيح له في العام التالي أن يحظى بمعرفة لي هنت، وقد سبقت الإشارة إليه فلم تلبث المعرفة أن انقلبت صداقة عميقة فيها كل ما يرتفع بالصداقة إلى ذروة السمو والنبالة تبجيل ووفاء من ناحية الشاعر الشاب، وتقدير ورعاية من ناحية الأديب المثقف الحر الفكر، وفي كنف هذه الصداقة انهالت بواكير الشاعرية العذبة التي يستمتع بها قراء الإنجليزية اليوم. فلم يكد ينقضي العام حتى ظهر في عالم المطبوعات أو الدواوين كيتس مصدرا بقصيدة يقدم فيها الديوان إلى هنت معلنا في وفاء وتواضع وإخلاص أنه يشعر بالسعادة ويبارك القدر الذي يتيح له أن ينال بجهوده المتواضعة رضى رجل مثل لي هنت.

ويشاء الحظ العاثر أن لا ينال هذا الديوان كثيرا ولا قليلا من النجاح أو ما يشبه النجاح. فلم يعن أحد من القراء باقتنائه، أي شرائه، وكانت هذه صدمة شديدة الوقع في نفس الشاعر الشاب المتطلع إلى ذرى المجد،

ولكنه حين وازن بين الإعجاب الشديد الذي قوبل به الديوان من جانب الأصدقاء وخاصة الأدباء المتصلين به، وبين الجحود التام الذي قوبل به من جانب جمهرة القراء، عمد إلى إلقاء التبعة في هذا الفشل على عاتق الناشر المسكين! فانفصمت بذلك عروة الصداقة التي كانت تجمع بينه وبين مستر أولير ذلك الشاعر الشاب الأديب الذي تطوع بنشر الديوان إعجابا بشاعرية كيتس.

ظهر الديوان الأول في مارس سنة ١٨١٧. فلم يكن سقوطه ليصد كيتس عن سبيل الشعر، بل أخذ يقرض في السنة عينها قصيدته المشهورة (أندميون) والتي نشرت في سنة ١٨١٨ عندما كان يبدع قصته (إيزابيلا).

ثم رحل إلى البحيرات الإنجليزية في أسكتلندا، أما مهنة الجراحة فكان قد هجرها نهائيا، وصمم على أن يقطع صلته بها رغم أن النجاح لم يخطئه في أية عملية جراحية أجراها، لأن فكرة غريبة تسلطت على ذهنه وجعلت استمراره في مزاولة الجراحة عبئا لا يحتمل، فقد كان في خوف دائم من أن يخطئ في أثناء إحدى العمليات فيزهق أرواحا بريئة بغير حق، ولا شك أن خيال كيتس وحسه المرهف أكبر الأثر في تجسيم هذا الخسوف الذي قطع عنه مورد رزقه وألقاه في خضم الحياة وهو لا يكاد يملك قوته اليومي، ومن حوله أصدقاء أوفياء يعدون على الأصابع.

ذهب كيتس إلى منطقة البحيرات الإنجليزية التماسا للصحة، بعد أن بدت عليه علائم الضعف والاعتلال، ولكنه لم يلبث أن أصيب بالتهاب في الحلق فاختصر رحلته وعجل بالعودة إلى لندن، وفي أغسطس وسبتمبر

ظهر في صحيفتي (الكوارترلي) و(بلاكوود) مقالان في نقد قصة (أندميون) سداهما التحامل البذيء ولحمتهما الكيد السياسي الوضيع، انتقاما من كيتس لصداقته الوثيقة بلي هنت واجترائه على تهنئته بالخروج من السجن الذي كان قد زج فيه بسبب حملاته السياسية العنيفة.

ولقد أشرنا من قبل إلى خطأ الذين يعزون لهذين المقالين اشتداد العلة على كيتس والتعجيل به إلى الخاتمة الأليمة، ولكن هذا لا يمنع أن يكون كيتس قد حزن لظهورهما بعد أن كان يعلق أكبر الآمال على كتابه الجديد واذا كان شل لفرط محبته لصديقه كيتس وشدة فجيعته فيه، وإذا كان بيرون مدفوعا من ناحيته بعاطفة الإشفاق على مصير الشاعر الشاب مسوقا من ناحية أخرى بالرغبة في التفكير عن سابق تجنيه على عبقرتيه– إذا كان كلا الشاعرين قد قطع بأن كيتس راح ضحية هذين المقالين المشئومين، فإن وثيقة تاريخه قد أقرت الأمر في نصابه، وردت عن كيتس وصحة الضعف الخور والتخاذل أمام النقد والتجريح. فقد جاء في خطاب من كيتس إلى الناشر هيسي تاريخه ٩ أكتوبر سنة ١٩٠٨ هذه العبارة التي تدل على مبلغ إيمان الشاعر برسالته وحسن تقديره لما ينبغي أن يكون من مثابرة وجد وانتفاع بالتجارب.

"... لقد بدأت أزداد علما بنفسي وما تنطوي عليه من قوة وضعف، وإن المدح والقدح مما لا يترك إلا أثرا موقوتاً في نفس الرجل الذي يدفع به حب الجمال المعنوي إلى أن يصبح ناقدا قاسي الحكم على نتاج فنه، ولهذا عانيت من عناء نقدي النفسي ما لا يقارن بما يمكن أن يكون قد نالني من مقال بلاكوود أو كوارتولن، ولكني أيضا حين أحس بأنني على

حق، لا يمكن أن أظفر من إطراء الآخرين بالغبطة التي نالها من إحساسي وإدراكي الشخصي لكل ما هو جميل.. إني سأكتب ما أريده فلأكتب بعد اليوم مستقلا، وإذا كنت قد كتبت من قبل مستقلا من غير تدقيق فلأكتب اليوم مستقلا مع التدقيق فعبقرية الشعر يجب أن ترفع نفسها بنفسها وعلى الخالق أن يخلق نفسه بنفسه..."

ويقول كيتس في خطاب إلى أخيه جورج تاريخه ٢٩ أكتوبر سنة ١٨١٨:

أعتقد أنني سأصبح بعد موتي في عداد الشعراء الإنجليز، وأما محاولة هدمي في جريدة كوارترلي فلم تثمر سوى زيادة الاهتمام بأمري وذيوع شأني. وليس مما يضير في المجتمع أن يحاول أحد تصغير شأني والسخرية مني فأنا أعرف مقام الرجل الذي يفضلني وأوليه ما يستحق من تبجيل، وبذلك أجعله آخر من يضحك مني.

فهذه فقرات قاطعة الدلالة على أن دعوى تخاذل كيتس إلى حد الحزن القاتل بسبب ذينك المقالين هي دعوى منقوضة لا تستند من الحق الواقع على أساس.

في أكتوبر سنة ١٨١٨ خط القدر أول سطر في صفحة يحفظها التاريخ بين أخلد صفحات الحب وأحفلها بتباريح الشوق وحرارة الإخلاص ولوعة الأسي الفاجع المحرق.

التقي كيتس أول الأمر بفتاة تدعى جان كوكس قال عنها في خطاب إلى شقيقه جورب في ٢٩ أكتوبر سنة ١٨١٨.

"... إنها ليست كليوباترا، ولكنها على الأقل شرميون، غنية بملامحها الشرقية ساحرة العينين جميلة الخلق، إذا دخلت غرفة شع منها نفس السحر الذي يشع من جمال الفهدة.. وإنني أرتاح دائما إلى مثل هذه المرأة، فإن رسمها ليضفي عليّ دائما حياة وحيوية لا يمكن أن أحس بهما تحت تأثير أي مخلوق دونها .. إنني لأنسى وجودي تماما لأنني أحيا فيها..."

هذه لغة تحمل بين طياتها ولا شك نفحة من نفحات الحب، فلا غرو أن يخطئ مؤرخو كيتس فيظنون أن (شرميون) التي يشير إليها في هذا الخطاب هي معشوقته وخطيبته التي تبين فيما بعد أن اسمها فاني برون، وحتى اللورد ماوتون في ترجمته لكيتس يعقب على الخطاب الذي اقتبسنا منه الفقرة السابقة بقوله:

"يحسن أن نقرر في الحال أن السيدة التي أشير إليها في الصفحات السابقات قد ألهمت كيتس تلك العاطفة التي لم تخمد إلا بوفاته"

وهذا خطأ لم يكن عجيبا كما قلنا أن يقع فيه مترجمو كيتس، ولقد كان الشاعر صادقا كل الصدق مخلصا أتم الإخلاص في الإبانة عن حقيقة عواطفه حين أردف العبارات السابقة في خطابه إلى أخيه بقوله:

"سيتبادر إلى ذهنك عند هذا أنني أحبها، فأود قبل أن أمضى إلى ما هو أبعد من ذلك، أن أقول لك أنني لست كما تظن أنها قد أسهرتني ليلة كاملة، لكن كما يفعل بالإنسان أحد ألحان موتسارت"

على أن كيتس حين كتب هذا الخطاب لم يكن يدري ما يعد له القدر، فهو لم يكد يبعث به إلى أخيه حتى قابل فاني برون، وهي فتاة في الثامنة

عشرة تصغره بأعوام خمسة، نحيلة، رقيقة، وسيمة، لولاها لم يعان كل هذه الآلام التي تنضح بها خطاباته الخالدة. ولولاها كذلك لم يظفر العالم بأعظم ما أنتجت عبقرية كيتس من مثال قصائده. "إلى البلبل والأصيص الإغريقي والنجم المتألق، وغيرهما من فرائد الأدب.

وصف كيتس فاني برون بمحاسنها ونقائصها، فقال أنها جميلة ورشيقة ولطيفة وسخيفة ومتأنقة غريبة الأطوار، ونعتها مرة أخرى بأنها لعوب، ويظهر أنها كانت على شيء من الخفة، والتي لا تستغرب من فتاة حداثة سنها، فأشعلت في نفس حبيبها الشاعر الشاب روح الغيرة المحرقة، مما دفع النقاد والمؤرخين إلى التحامل عليها وإلقاء ذلك اللون القاتم على سيرتها، حتى لقد قال السير سيدني كولفين أن حبها كان أعظم نحس صادف جون كيتس، وهو حكم يخفف من قسوته قول السير سيدني بعد ذلك أن ظروف الشاعر نفسها كانت كفيلة بأن تجعل غرامه بأية امرأة مصدرًا لشقائه.

وشبيه بهذا الرأي قول لورد هاوتون أن قوة العاطفة في حب كيتس كانت من عوامل فنائه وسيره إلى الموت بخطى سريعة؛ فلو كانت حيويته أقل لجاز أن تكون حياته أطول.

دخل كيتس هيكل الحب، فإذا هو خائف مضطرب العواطف يحاول أن يقاوم سلطانه الغلاب فيقول في خطاب إلى أحد أصدقائه:

"إنني لأبغض رضى الجمهور وحب المرأة على السواء؛ فكلاهما كالمادة اللزجة تحول دون استقلال الجناحين"

وفي نفس الشهر الذي كتب فيه الخطاب السابق بعث إلى فاني برون من جزيرة وايت، حيث ذهب انتجاعًا للصحة، يقول:

"سأتخيلك الليلة في صورة الزهرة فينوس ثم أصلي، وأعيد الصلوات لنجمك كما يفعل عابد الوثن".

عاد كيتس ذات ليلة في نحو الساعة الحادية عشرة في حال من الاضطراب أشبه ما تكون بالسكر الشديد، وقال لصديقه ورفيقه المخلص الحميم بروان أنه أصيب بلفحة برد، وأنه يحس ببقايا حمى خفيفة زالت عنه، فأشار عليه صديقه بأن يأوي إلى الفراش. وبينما هو يعتلي فراشه أصابه سعال خفيف قبل أن يضع رأسه على الوسادة، فلم يلبث أن قال لصديقه.

– لقد طفح الدم من فمي. أحضر القنديل لأني هذا الدم وحملق الشاعر المستكين لحظات في تلك البقع القرمزية

ثم وقع بصره على وجه صديقه في سكون مفاجئ رهيب وقال:

– إنني أعرف لون هذا الدم أنه دم الشريان: لا يمكن أن أخطئ في هذا اللون إن تلك النقطة نذيري بالموت فأنا ميت لامحالة.

بادر بروان في الحال إلى دعوة أحد الجراحين، وبعد عملية فصد الدم استغرق كيتس في نوم هادي، وكان من رأي الجراح أن الرئتين سليمتان، وأن الحالة غير خطرة، ولكن المريض – وهو أيضًا طبيب، أو على الأصح كان طبيباً– لم يكن يرى رأي الجراح الذي عالجه، فكانت روح اليأس غالبة على نفسيته، وإن فارقته في أحيان قليلة؛ فنراه يومًا يقول لصديقه براون:

- إذا كنت تتمنى لي الشفاء، فلوح لي بالأمل في السعادة حين أسترد صحتي، فأنا الآن من الضعف بحيث اقبل التعلل بالأمل.

وفي يوم أخر نراه يقول:

- انظر إلى يدي. إنها يد رجل في سن الخمسين.

ولكن كيتس في أشد ساعات ألمه وسقمه لم يغفل قط عن ذكر حبيبته، فقد كتب إليها يقول أنه في تلك الليلة المشؤمة التي أصيب فيها بالنزف، وأيقن أنه أصبح على أبواب الأبدية، لم يكن يشغل ذهنه إلا ذكرها.. ثم أرسل إليها يومًا بعد يوم وهو طريح الفراش في مسكن مجاور لدارها في هامستد خطابات تنبض بعبارات الشوق والإخلاص والوفاء. فهو تارة يقول في أحد هذه الخطابات إليها

"... يعلم الله وحده من قدر لي أن أذوق معك السعادة أو لا، ولكني على كل حال وأن أعلم شيئًا بعينه، هو إنني أعدها سعادة قليلة أن أكون قد أحببتك إلى هذا المدى فإذا لم يقدر حبي أن يمضي إلى أبعد من هذا لم أكن من الجاحدين".

وفي خطاب آخر:

"... إنك دائمًا في تجدد ولقد كانت آخر قبلاتك أوفرها حلاوة. وآخر بسماتك أكثرها رشاقة. فلما مررت بنافذتي أمس ملأني الإعجاب بك كأنها أول مرة أراك... إنني لم أشعر قط أن ذهني يطمئن في لذة تامة صافية إلى أي شخص سواك".

إن ناقدًا منصفًا لا يسعه أن يقف على هذه المعاني البديعة، ثم يسلم

برأي الذين يزعمون أن فاني برون لم تجلب للشاعر العظيم سوى الآلام والأحزان.

ولعل أصدق تحليل لهذه المأساة هو أن سرها لا يرجع إلى فاني برون وإنما يرجع إلى سعة الشاعر الشاب وأعصابه الثائرة التي كانت تجسم له صنوف الشكوك والوساوس وتدفعه إلى أن يسأل نفسه بغير انقطاع عما إذا كانت فاني ثابتة العهد والوفاء له رغم اعتلاله، وبؤسه، وإملاقه، وخمول شأنه.

كانت ظروف كيتس وأعصابه تلهب صدره بنيران الغيرة التي تكاد تجمله في عداد شخوص الروايات – ألم تدفعه هذه الغيرة إلى حد اتهامها بمغازلة صديقه النبيل براون؟ ألم تدفعه الغيرة أن ينهى فاني عن استجابة دعوات الداعين أو أن تذهب وحيدة إلى المدينة؟ ألم يكتب إليها وهو مقيم في بيت لي هنت يقول

"أتوسل إليك بدم المسيح الذي تعتقدين به، ألا تكتبي إلى إذا كنت قد أتيت في هذا الشهر أمرًا كان يؤلمني أن أراه. لعلك قد تغيرت. فإذا لم يكن ذلك إذا كنت لا تزالين على ما رأيت من سلوك في قاعات الرقص وغيرها من المجتمعات. فإنني لا أريد أن أعيش وإذا كنت قد فعلت شيئًا يؤلمني فإنني أرجو أن تكون الليلة القادمة آخر عهدي بالحياة أنني لا أستطيع أن أعيش بدونك، ولكن لا بدونك أنت فقط، بل أنت العفيفة، أنت الطاهرة!"

هكذا كان يكتب كيتس إلى هذه الفتاة الوفية التي لا يستطيع أحد أن يثبت عليها شبهة من شبهات الخيانة أو الغدر، وهكذا نرى كيتس نفسه

يكتب إليها بعد ذلك نادمًا معتذرًا ثم يقول:

"إنني أود أن اعتقد بالخلود.. أود أن أعيش معك إلى الأبد".

وعبثا حاول كيتس أن يستعيد صحته أو يخلص من أزمات المرض العضال الذي استقر في صدره فاستقر الرأي في ربيع سنة ١٨٢٠ على أن يقوم الشاعر الشاب برحلة طويلة إلى إيطاليا تبديلا للهواء، وعندئذ تندم صديقة الرسام العظيم سيفرن، الذي منح الميدالية الذهبية للأكاديمية الملكية في لندن بعد أن بقيت اثني عشر عامًا لا تمنحها أحدًا من الرسامين ضنا بقيمتها أن تذهب بمنحها لمن لا يستحقها عن جدارة تامة. تقدم سيفرن لمرافقة كيتس وفاءً له وردًا لجميله السابق في الدفاع عنه وصد حملات الحاقدين عليه حين منح الميدالية الذهبية وضحى سيفرن حينئذ بما ينتظره من مجد وثروة، مؤثرًا على ذلك كله أن يخدم هذا العبقري البائس المريض يرافقه في عربته، مؤنسًا وحدته مسريا عنه، متوليا تدبير شئونه والسهر على راحته.

وصل كيتس ورفيقه إلى نابلي في آخر أكتوبر سنة ١٨٢٠ بعد رحلة تضاعفت آلامه في شطرها الأخير، كما زاد من متاعبها استمراره في الحجر الصحي عشرة أيام، فلم يكد يهبط المدينة حتى كتب في اليوم التالي إلى صديقه براون يقول:

".. إن اعتقادي المتزايد بأنني لن أراها (يشير إلى فاني برون) بعد الآن سينتهي بقتل أي عزيزي براون، كان ينبغي أن أنالها وأنا متمتع بالصحة، وعندئذ كنت أبقى سليم البدن إنني لا أطيق أن أموت ولكني لا أطيق أن أفارقها. أواه يا إلهي: يا إلهي أن كل شيء في حقائبي يذكرني بها فيخترق

صدري كما تفعل السهام: وإن البطانية الحريرية التي وضعتها في قبعة سفري لتلهب رأسي إلهابا.. إن مخيلتي لفظيعة الحيرة فيما يتعلق بها -إنني أراها وأسمعها"

ويذكر الشاعر المضنى أيام كان في هامستد يرمق منزل حبيبته طول النهار ثم يقول:

"كان الأمل كبيرا آنذاك في أن أراها ثانية. أما الآن — آه لو استطعت أن أدفن قريبا من دارها.. إنني أخشى أن أكتب إليها وأن أتلقى خطابا منها – إن قلبي ليتحطم إذا رأيت خطها — حتى ذكرها على أي وجه من الوجوه أو رؤية اسمها مكتوبا على أي شيء – حتى هذا يفوق ما أستطيع أن أحتمل.."

وانتقل كيتس من نابلى إلى روما، وذهب إلى طبيب عظيم الشهرة هو السير جيمس كلادك؛ فقدم له خطاب توصية كان يحمله، فلم يدخر الطبيب الكريم جهدا في تقديم كل ما يستطاع من رعاية وعطف وعناية، وأسكنه في ميدان إسبانيا (بيازا دسبانيا) أمام مسكنه، ولكن الجهل السائد إذا ذاك أثار الخرافات والأوهام حول الشباب المريض فأخذ الأهلون يفرون منه فرار السليم من الأجرب، إذ كانوا لجهلهم يحسبون مرضه وباء سريع الانتشار، وهكذا وجد كيتس روح القطيعة والنفور في أحوج أوقاته إلى الود والإيناس، وأخيرا شاء القدر ألا تطول هذه الحياة المترعة بالبؤس والآلام؛ فقد اشتدت العلة على كيتس واضطربت معدته حتى كانت تؤلمه أشد الألم كلما حاول أن يقرأ أو يكتب، فلا غرو أن يقول لصديقه بروان في آخر خطاب خطته يده وتاريخه ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٢٠.

"لقد أصبحت أحس إحساسا لا يفارقني بأن حياتي الحقة قد انقضت،
وأنني أعيش من وراء القبر

أما خاتمة المأساة؛ فقد سجل من مراحلها الصديق الوفي النبيل (سفرن) في عبارات تثير الأسى والشجن. ولا يسعنا سوى أن نقتبس من وصفه هذه الفقرات المؤثرة في بساطتها وصدقها وإيجازها..

١٤ ديسمبر – أخشى أن يكون كيتس المسكين في أسوأ حالاته. فقد حلت به نكسة لم تكن منتظرة التزمته الفراش.. جعلت كل الاحتمالات ضده أن آلامه عظيمة متصلة، وقد تلاشت قوته تماما حتى أصبح هذيانه محتوما عند أول تطور جديد ....

١٧ ديسمبر الساعة الرابعة صباحا – لقد نام الآن فقط . للمرة الأولى في الليالي الثماني الماضية.. وقد سال الدم من فمه عند السعال خمس مرات إلى الآن، وهو لا يهضم شيئا ما، ومع ذلك لا يفتأ يطلب الطعام ويؤكد في كل يوم أنه سيموت جوعا؛ فاضطررت لإعطائه أكثر مما كان مسموحا به أن مخيلته وذاكرته تصوران له كل شيء في صورة مروعة، فهو يذكر في فزع صديقه الطبيب بروان، ويذكر أسابيعه السعيدة الأربعة إلى جانبها (فاني برون) ويذكر أخته وأخاه ..

١٥ يناير سنة ١٨٢١ منتصف الثانية عشرة. لقد نام كيتس المسكين الآن، وقد سهرت عليه وظللت أقرأ له حتى أغمض عينيه، وقد قال لي: «سيفرن إنني أرى تحت هدوء نظرتك تجلدا عظيما. إنك لا تفهم ما تقرأ، وإنك لتتحمل في سبيلي أكثر مما أود أن أحملك.. أواه ليت ساعتي

الأخيرة تحين"

لقد أبى تورلونيا صاحب المصرف أن يعطينا أية نقود بعد ما أخذناه، وأعاد الإذن مرفوضا، ولا بد لي أن أدفع جنيها معي إيجارا لهذا المسكين الملعون، والأنكى أنه إذا مات أحرقت كل السرر والأثاث، وأعيد طلاء الجدران، وعندئذ أطالب أنا بمائة جنيه أو تزيد، ولكن أهم من ذلك كله هذا الفتى النبيل الطريح في فراشه محروما من الهدوء الروحي البسيط الذي يناله كثير من الحمقى والمفاليك في الرمق الأخير إنه لا يقوى على قراءة أي خطاب يتلقاه، وقد طلب أن أضع الخطابات بجانبه دون أن أفضها. فهي تمزق قلبه ولهذا لم يعد يقوى على مشاهدة غلافها.

١٤ فبراير – أخذ الهدوء والصفاء يستوليان على عقله. وقد تكلم الليلة كثيرا جدا، ولكن في هدوء استغرق بعده في نوم هنيء، وقد كان أهم ما طلب إلى الليلة أن ينقش على قبره هذه العبارة:

هنا يرقد إنسان كتب اسمه على صفحة الماء..

لقد وصل خطاب أعطيته كيتس ظنا مني أنه منك، ولكنه لم يكن كذلك ويا للحزن، فقد ألقى عليه نظرة لم تلبث أن حطمت وأثرت في نفسه أياما عدة، ولم يقرأ هذا الخطاب فلم يكن ليستطيع ذلك، بل طلب إلى أن أضعه في نعشه مع كيتس وخطاب أخر من أخته..

٢٧ فبراير لقد مضى وفارق الحياة في أتم هدوء كأنما استسلم للنوم في الثالث والعشرين قبيل الساعة الرابعة أقبلت طلائع الموت. فقال «سيفرن إنني.. ارفعني.. إنني أموت.. سأموت بسهولة لا تفزع، تجلد واشكر الله

على أن الساعة قد أتت" هكذا انطفأت آخر خفقة في السراج، ومضى الشاعر الشاب جون كيتس إلى خلود الأبدية، ثم عاد إليه بعد أن مات حقه في الخلود أعظم شعراء العالم.

مصطفى كامل

يتساءلون أبالسلال قضيت أم بالقلب أم هل مت بالسرطان

الله يعلم أن موتك بالحجى والجد والإقدام والعرفان

صدق شوقي "رحمه الله"؛ فما كان هذا الذي قال في مصطفى كامل إلا حقا صراحا، لا تشوبه من مبالغات الشعر وسفسطة الشعراء شائبة. لقد راح مصطفى كامل في ربق شبابه شهيد عزيمته الجبارة وإقدامه الذي لا يعترف بالصعاب والعقبات، وجده الذي لا إشفاق معه على صحة ولا جهد.

ألم يكن دستوره في الجهاد "لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معني لليأس مع الحياة"

ألم تكن الحياة، ولم تزل مليئة بالعوائق مترعة بألوان الصعاب التي لا بد للإنسان عندها من اختيار أحد نهجين: راحة إلى اليأس، أو نشاط إلى الكفاح؟

لقد اختار مصطفى كامل طريق الكفاح، ولكنه كان كفاحا بلا هوادة كفاحا جبارا أمام قوة، بل قوى جبارة، وقد انتهى الكفاح إلى نتيجة باهرة ولكنها مؤسية باهرة لأن النصر فيها كان للزعيم الشاب، الذي قوض بمعاوله القائد المنتصر، قد استشهد في ختام المعركة.

***

ولد مصطفى كامل في ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ وكان والده على أفندي مُحَمَّد مهندسا في الجيش المصري من أيام مُحَمَّد علي الكبير، وكان أستاذا للمرحوم علي مبارك بمدرسة الهندسة، وقد عني بتربية أولاده تربية صالحة قويمة لا شك أنها كانت عظيمة الأثر في طابع الجد والاستقامة الذي امتازت به حياة الزعيم الشاب من طفولته إلى أن اختاره الله إلى جواره..

ألحق مصطفى كامل بمدرسة أم عباس الابتدائية، وهو في مستهل العام السابق من عمره، بعد أن تزود في البيت بمبادئ القراءة والكتابة، وحفظ كثيرا من القرآن الكريم على يد فقيه صالح كان يعده للالتحاق بالأزهر على ما كان يريده والده، وقد مكث في مدرسة أم عباس عامين، ثم حدث أن عاقبه أحد المدرسين لمبادرته إلى الإجابة على سؤال موجه إلى تلميذ سواه، فعز على مصطفى أن يعاقبه المدرس بأن يسبه ثم يحبسه. فطلب إلى والده أن ينقله من هذه المدرسة، فإني لا أحب أن أكون تلميذا في مدرسة أحد أساتذتها على ما ترى يا والدي من الجور والاستبداد، فلما تحقق والده من صحة ما قال أدخله مدرسة السيدة زينب التي كانت خاضعة لوزارة الأوقاف. وقبل أن يتم دراسته الابتدائية بهذه المدرسة وافته المنية والده فسأل أخاه وولي أمره حسين واصف باشا (وزير الأشغال فيما بعد أن ينقله إلى مدرسة القريبة لقربها من منزل جده لأمه حيث كان يقيم هو وإخوته إذ ذاك فأجابه أخوه إلى رغبته، وفي هذه المدرسة أتم دراسته الابتدائية بتفوق عظيم، وتسلم المرحوم من الخديوي توفيق باشا جائزة الامتحان في احتفال دارت فيه بين سموه وبين زعيم المستقبل محاورة تنم عن

الثبات ورباطة الجأش وعلم النفس، ففي هذه المحاورة سأله سمو الخديوي:

- ما اسمك يا بني؟

- اسمي مصطفى كامل

(وهنا لفت ضابط المدرسة نظرة هامسا إلى أنه ينبغي أن يقول - عبدكم فلان - فلم يلتفت التلميذ الكريم النفس إلى هذه الملاحظة) فلما سأله الخديوي بعدئذ عن اسم والده لم ينتهز الفرصة ليعمل بنصيحة الضابط الخبير بما كان عليه العرف إذ ذلك، وما لايزال إلى الآن من إعلان العبودية والذلة في حضرة العظماء، وإنما أجاب مصطفى كامل حين سئل عن اسم والده بكل بساطة:

- المرحوم على مُحَمَّد.

فلما انتهت الحفلة قصد مصطفى كامل إلى الضابط، وقال له في شمم، وفي حجة قوية «ما كان أبي عبدا وما كنت أنا كذلك. فإذا أجبت بغير الواقع كما كنت تريد أن أجيب كنت كاذبا»

وانتقل مصطفى كامل إلى مرحلة التعليم الثانوي فألحق بالمدرسة التجهيزية (وهي الآن الخديوية) فلما كان في السنة الثانية أصدر وزير المعارف - وهو إذ ذاك المرحوم على مبارك باشا - قرارا برفع نسبة النجاح إلى ١٦ درجة من عشرين في كل مادة. وظهرت نتيجة الامتحان فإذا ترتيب مصطفى كامل السابع بين إخوانه الذين يبلغون خمسة وسبعين عددا. وإذا هو مع ذلك ألا ينال هذا المتوسط المشروط للنجاح، بل لم ينله بين الناجحين جميعا سوى طالبين اثنين - فهداه تفكيره وما فطر عليه

من صفات الشجاعة وروح الجد والإقدام إلى أن يقصد إلى وزير المعارف فيدخل عليه موهما الحاجب حين أراد منعه بأنه (ابن الباشا) فلما تخطى الحاجب قال له بصوت مرتفع أنه (ابن الباشا في العلم) ورفع علي مبارك نظره على هذا الصوت وسأله الصبي الماثل أمامه ماذا يريد؟ فلما بسط له شكايته أراد الوزير أن يمتحنه في علم تقويم البلدان الجغرافيا فسأله عن جزيرة نائية، وطلب منه الإشارة إلى موضعها على خريطة معلقة على الحائط، فلم يعرفها مصطفى كامل الضالة شأنها على ما يظهر. وهنا تبدو جرأته في أقوى مظاهرها إذ يستأذن في شجاعة مهذبة أن يسمح له الوزير بأن يلقي عليه سؤالا واحدا، فلما أذن له سأله أن يخبره، وقد صعد إلى مكتبه نحو ألف مرة: "كم عدد درجات سلم الوزارة؟".

وهنا تحول الوزير عن السؤال، وقد فهم أن القرار أحدث في نفوس التلاميذ أثرا شديد الوقع، وانتهت المقابلة بأن أذن لمصطفى كامل أن يذهب فيعلن لإخوانه اقتناع الوزير بظلم القرار وعدوله عن المتوسط الجديد إلى القديم، ومن هذا الوقت ذاعت شجاعة مصطفى كامل بين إخوانه واشتدت محبتهم له، كما عظم تقدير أساتذته له وإعجابهم بنشاطه وعلو نفسه..

ويروي المرحوم جرجي زيدان بك أن أحد رفاق مصطفى كامل في المدرسة أخبره بأن المرحوم علي مبارك باشا نفسه كان يختصه بجنيه كل شهر مدة إقامته في المدرسة، وكان الوزير الكبير يدعو مصطفى كامل إلى منزله ويناقشه في المسائل العلمية والاجتماعية، ويعرف به جلساءه من العلماء والوزراء، فكانوا جميعا يتوقعون له مستقبلا باهرا جديرا بسعة اطلاعه

وحضور بديهته وعلو همته.

***

ويظهر أن هذا التقدير الذي كان مصطفى كامل يرى نفسه محوطا به، ولد في نفسه أكبر الآمال وأسمى المطامع، وهو بعد في الدراسة الثانوية، فقد روى شقيقه علي فهمي بك في السيرة التي وضعها له أن المرحوم على مبارك باشا زار المدرسة التجهيز يوما، فلما دخل الفصل الذي به مصطفى كامل طلب منه أن يرتجل خطبة فيما ينوي أن يصنع بعد أن يتم دراسته الثانوية، وقف يقول بالأسلوب العربي الرصين والمنطق العذب المتدفق والسمو الفكري الذي كان يشع في كل خطبة من خطب مصطفى كامل منذ اعتلى ذرى المنابر إلى أن ودعها بخطبة الإسكندرية الخالدة، قال التلميذ مصطفى كامل في خطبته المرتجلة أمام علي باشا مبارك.

«سألتني يا سعادة الوزير الخطير، سألت الله لك الرفعة والارتقاء أن أقول كلمة فيما أريد أن أصنع بعد نيل شهادة الدراسة الثانوية، فانأ أكل هذا الأمر إلى إرادة الخالق عز وجل، فلتكن مشيئته تعالى. بيد أنني استنتجت مما كان يرويه إلى المرحوم والدي من أحاديث كبار الرجال، وما درسته عن أستاذي العلامة المفضال أحمد بك نجيب معلم التاريخ من أسير الفاتحين الأبطال، ما أيقنت معه أن أعظم الرجال شأنا من يحرر بلاده وينقذ أمته من ربقة الذل المحرر الذي يكتب ويخطب واضرب الأمثال للناس كما كان يصنع أستاذي مشيرا بما في الحرية من العزة والحياة منذر بما في الذل من الموت والصغار، والله تعالت حكمته وجلت قدرته يوفقني إلى ذلك»

والتحق مصطفى كامل بمدرسة الحقوق الخديوية في السادسة عشرة من

عمره، فأخذ ينشر الرسائل ويوافي الصحف بالمقالات، ويعتلي ذرى المنابر خطيبا ومناديا في الجمعيات واتصل في مداه ١٨٩٢ أي في سنته الأولى بالحقوق بالأديب الكبير الشيخ على الليثي خطيب العرابين؛ فأفاد كثيرا من خبرته وعلمه بدخائل الحوادث الأليمة التي صاحبت الاحتلال البريطاني وفي ١٨ مارس سنة ١٨٩٢ قدمه الشيخ على الليثي إلى سمو الخديوي السابق عباس حلمي الثاني؛ فنشأت بذلك بين الأمير وزعيم المستقبل علاقة كان لها أعظم الأثر في حياة مصطفى كامل وخطته في الجهاد..

ويفسر الدكتور هيكل باشا سر اعتماد الخديوي عباس على مصطفى كامل وغيره من الشبان تفسيرا دقيقا، فيقول إن عباس الثاني ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده حتى وجد ندا له في قصر الدوبارة لورد كرومر معتمد بريطانيا صاحبة السلطان العلي في البلاد بقوتها، وبجيش احتلالها وباستئثارها بكل المناصب الرئيسية في الحكومة، وهو ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده. وأراد مدفوعا بحماسة الشباب أن يظهر للناس حقه وسلطانه حتى صدمته حادثة الحدود التي اضطر معها إلى الاعتذار عن ملاحظته التي أبداها للقائد كتشنر حين عرض الجيش المصري بالسودان.

وكان المتقدمون في السن من المصريين الذين شهدوا عهد إسماعيل ومظالم حكومته، والذين رأوا حركة عرابي واشتركوا أو لم يشتركوا فيها وشهدوا فشلها، وتغلب سلطان الإنكليز عليها وعلى فرنسا وانفرادهم دونها بأمر مصر.

كان هؤلاء المتقدمون في السن أشد الناس ترددا في مشاركة الأمير الشاب الذي اعتلى العرش في الثامنة عشرة من عمره في مطامعه ومطامحه، فلم يكن يستطيع الاعتماد إلا على الذين لم يهن عليهم ظلم إسماعيل واستبداد الإنكليز، والذين لم يضعف الجهل أو البله في نفوسهم معنى الحرية. وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان في مقدمتهم؛ فقد جمع إلى الشباب إقداما جاوز حدود الإقدام، مع نشاط عصبي لا يهدأ إلا أن يهد المرض صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة..

وندع الآن حديث هذه العلاقة، وما كان لمصطفى كامل من عذر في الاطمئنان إليها والاعتماد عليها. فنقول إن مصطفى كامل لم يقنع بالدراسة في مدرسة الحقوق الخديوية فالتحق في العام التالي بمدرسة الحقوق الفرنسية استزادة من الدراسة باللغة الفرنسية وتشربا لروح الحرية التي تسود التعليم في المدرسة الأخيرة؛ فكان يدرس الحقوق المصرية نهارا والفرنسية ليلا، ويجمع إلى ذلك اشتغاله بإصدار مجلة المدرسة التي أنشأها وتزعم بها زملاءه في الدرس. وعمله كاتبا وخطيبا ومناظرا في الصحف السيارة والأندية والجماعات وفي أواخر يونيو سنة ١٨٩٣ غادر مصر للمرة الأولى إلى فرنسا حيث أدى امتحانه الأول في الحقوق الفرنسية، وفي هذه الزيارة لفت نظره (نشاط القوم ومعدات حياتهم) وتعرف بطلاب روسيين وبولونيين ويابانيين

«فرأيتهم جميعا منكبين على العلم، ولكني أؤكد لك – والخطاب لأخيه– أن المصري أقواهم عارضة وأعلاهم ذكاء، ولا ينقصه إلا الإرادة التي هي أساس النجاح".

وقد سأله المرحوم علي مبارك باشا على أثر عودته من هذه الزيارة الأولى، لماذا تقدم الفرنسيون وتأخرنا نحن؟ فوقف أمام الوزير وجلسائه وقد ثارت حميته، وتدفق بيانه وقال في بصيرة نافذة وحكمة جديرة بالشيوخ المحنكين:

«تسألني يا سعادة الوزير لماذا تقدموا هم وتأخرنا نحن؟ وأنت العليم بسبب التأخير عندنا وأسباب التقدم عندهم. إنهم تقدموا لأن الحكومات هناك تشعر بما على عاتقها من التبعات أمام الأمم، فلا تهضم لهم حقا، ولا تخلف معهم عهدا، ولا تضن عليهم بمعونة ولا تستهين بما عليها من الواجبات.. والحكومة خادمة للشعب لا سيدة له وكفى. أما نحن، وصبرا جميلا يا مصر، فكما تعلم: إذا طلب أحدنا من الحكومة طلبا نبذت طلبه، وإذا رأت فكرة حميدة تشتغل بتحقيقها الأمة خلقت العراقيل وأوجدت الموانع، حتى تكاد هذه الأمة العزيزة تختنق بآثار تلك السيطرة الغاشمة »

واختتم مصطفى كامل كلمته الملتهبة بهذه العبارة التي تنطق بما كانت تنطوي عليه نفسه من إيمان بانتصار العدل والحق: «ولكن هذه الحالة لن تستمر طويلا، وإن لكل باغ مصرعا»

وفي ٨ يناير سنة ١٨٩٣ احتفل مصطفى كامل وإخوانه للمرة الأولى بعيد جلوس الخديوي، وكان المقصود بالاحتفال في الواقع التظاهر ضد السلطة غير الشرعية في البلاد من طريق تمجيد السلطة الشرعية ممثلة في الجالس على العرش. وفي هذا الاحتفال دعا مصطفى كامل جهرة إلى المطالبة بجلاء الإنجليز، فصدر بسبب ذلك قرار وزارة المعارف بمنع التلاميذ من مزاولة الشئون السياسية ومكاتبة الصحف، ولكن هذا

القرار لم يكن ليثني عزيمة مصطفى كامل، بل كان على العكس حافزا لهمته، وفي أواخر سنة ١٨٩٤ قصد إلى تولوز حيث نال إجازة الحقوق بعد جهد كاد يودي بصحته. فكتب إلى أخيه يقول:

(عوّلت بمشيئة الله على الانتظام في سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الأفراد. ولو أتيح لي الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع. لأن مصر وهي جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ونصبح فيها نحن أبناؤها الأعزاء ممقوتين غرباء).

وقد كان ما أراد مصطفى كامل، فلم يكد يشتغل بالمحاماة بضعة أشهر حتى ضاق بها، ووجد أفقها محدودا لا يرضي أطماعه، فاتجه إلى ميدان السياسة ولم تنتصف سنة ١٨٩٠ حتى كان قد قطع صلته بالمحاماة.

***

في ٢٨ يناير من ذلك العام، عام ١٨٩٠، نشرت جريدة الأهرام حديثا بين مصطفى كامل والكولونيل بيرنج (شقيق لورد كرومر) كان قد جرى بينهما على ظهر الباخرة في أثناء عودة مصطفى كامل إلى مصر، وفي هذا الحديث لم يراع الكولونيل بيرنج أقل تحفظ في عباراته اعتمد على الصفة الخاصة التي دار فيهما المناقشة بينهما فصرح بأن مصر دخلت «تحت حكم الإنجليز دخولا لم يبق معه شك لعاقل من العقلاء"، ولما ذكره مصطفى كامل بوعود الوزراء البريطانيين بالجلاء ضحك ساخرًا وقال: "أتظنون أننا نؤخذ بأقوالنا وأفعالنا ناطقات بحقيقة نياتنا؟ وماذا على رجالنا إذا كانوا حققوا لكم ولأوروبا (الاحتلال المؤقت) و(الجلاء القريب) ومبدؤهم (الكذب في خدمة الأوطان) واستعمال الخداع في السياسية نفس

استعماله في الحرب والطعان؟!)

ولم يكد ينشر هذا الحديث حتى أثار حربا قلمية عاصفة دارت رحاها بين الصحف الوطنية والصحف المناصرة للاحتلال وصال فيها مصطفى كامل صولات صادقة كتب له فيها الفوز والانتصار.

وفي ٢١ مارس سنة ١٨٩٠ قدم مصر النائب الفرنسي مسير دلونكل للاجتماع برجال مصر الوطنيين ودرس الحالية الاجتماعية والسياسية بمصر، فاستقبله مصطفى كامل بالإسكندرية ورافقه طوال الأيام العشرين التي قضاها بمصر فكان لهذه الزيارة وحركات مصطفى كامل خلالها وقع اليم في نفوس المحتلين.

وفي أوائل شهر مايو من العام نفسه مسافر مصطفى كامل فجأة إلى باريس، وقد قال لأخيه حين أبدى دهشته لنبأ هذا العزم المفاجئ على السفر: "أنسيت المسألة المصرية تلك المسألة التي استخرت الله أن أكون المدافع عنها، إذ طالعت كتبا كثيرة رسمية ووقفت على كل أسرار بلادنا السياسية، فلا تدهش يا أخي فإن هذا الطريق – ولو أنه وعر المسلك – مطلوب من كل وطني صادق.

ولم يكد يبلغ باريس حتى أرسل إلى أخيه على فهمي بك يقول:

«قد أوصيت على صورة سياسية تمثيلية لأقدمها مع عريضة سياسية لمجلس النواب الفرنسي، وسأجتهد في أن يكون الموقعون على هذه العريضة من أبناء مصر كثيرين حتى يكون لها في العالم دوي كبير وتأثير عظيم"، وقد تحقق ما كان يجيش في صدر مصطفى كامل بهذا الصدد من

آمال، فقد قصد إلى مجلس النواب الفرنسي في ٤ يونيه ومعه ستة من إخوانه المصريين المقيمين بباريس، وقدم إلى رئيس المجلس عريضة استغاثة من الأمة المصرية بالأمة الفرنسية مختتمة بالهتاف لفرنسا، محررة الأمم وفى العريضة شارة إلى الصورة الرمزية التي سبقت الإشارة إليها، وقد تسلمها منه سكرتير المجلس، وفي تلك الصورة فتاة حسناء تمثل فرنسا مصغية لاستغاثة الملهوف، وقد مدت يدها تتناول من يد المصري شكاية أمته الممثلة بفتاة تستغيث وهي مكبلة بأغلال غلاظ مربوطة بمخالب أسد رابض يقف إلى جانبه رجل هائل الصورة قابض على سيفه ناظرا إلى مصر شزرا كأنما يريد التهامها، وكان ذلك رمزا للاستبداد المفروض على مصر، وفي أسفل الصورة أبيات بالعربية من نظم مصطفى كامل وأمامها ترجمتها بالفرنسية وهذه هي الأبيات:

أفرنسا يا من رفعت البلايا ... عن شعوب تهزها ذكراك

انصري مصر إن مصر بسوء ... واحفظي النيل من مهاوي الهلاك

وانشري في الورى الحقائق حتى ... تجتلي الخير أمة تهواك

وقد أثارت هذه الخطوة الموفقة اهتمامًا عظيمًا في أنحاء العالم، وهاجت هائجة الصحف البريطانية حتى خرجت إحداها عن صوابها فكتبت تقول «ظهر بين المصريين رجل مهيج يدعي أنه مصري والحقيقة أنه تركي وقد كان أبوه موظفا في سراي الخديويين المصريين وقد قدم هذا المهيب المغروز استنجادا لفرنسا من الاحتلال ونسي ما عليه إنجلترا من القوة والحق في احتلال مصر، فالرأي العام الإنجليزي لا يلتفت لهذا الهذيان الذي يدل

على أن يدا كبيرة تحركه ضد إنجلترا صاحبة الحول والطول!"

وقد كان هذا الأثر البعيد القوي الذي أحدثته العريضة حافزًا جديدا شد من عزيمة الزعيم الشاب، وبخاصة بعدم ذيوع اسمه في أنحاء أمريكا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا والنمسا وتركيا وغيرها؛ فأخذ ينتقل في أنحاء أوروبا يخطب ويكتب ويدلي بالحديث تلو الحديث أن الصحفيين الذين أخذوا يمطرونه بالأسئلة الدقيقة المتوالية فكان يجيب عنها إجابة السياسي الجريء المدقق الواثق من حقه وعدالة مطلبه، حتى لفتت لياقته وهمته العالية أنظار العظماء ورجال السياسة والصحفيين الأوروبيين، فترى الدكتور هوفمان زنيفر رئيس حزب الشمال الألماني يقول له في خطاب مؤتمر في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦،

"إني قرأت أعمالك الأخيرة وتتبعت كل خطواتك السياسية دفاعا عن بلدك العزيز فوجدتها لم تصدر إلا عن وطني مخلص ذكي نشيط؛ فأهنئك بهذه الدرجة التي تدهش كل من وقف عليها وعرف أن سنك هي سنك (و كانت سنه رحمه الله آنذاك اثنتين وعشرين سنة)"

وكتب إليه أحد النواب الإيطاليين المشاهير:

"إنك بأعمالك تلفت العالم من جديد إلى تاريخ مصر القديم والجديد وتعيد ذكرى الفراعنة الذين لبسوا قبل بني البشر تاج العلم ودخلوا جنة الصناعة.. إنك لا تقل في نظري عن أوربي ذي رأسي كبير محنك، وربما فضلته بنشاطك الفائق الذي لا يقل عن نشاط البخار فمن باريس سمعك وكذلك من برلين وفيينا والأستانة تذكر بلادك، حتى خيل لنا أن العالم انه

معك... فلا تحرم إيطاليا من زيارتك فإن الأحرار يحبون على الدوام رؤية الأحرار من أي جنس كانوا!»

ويضيق بنا المقام إذا نحن حاولنا أن نحصي العظماء الذين بهرهم مصطفى كامل بأعماله والصحف التي ملأت أنهارها بإطراء شجاعته ونبالة أغراضه.

وقد تعرف مصطفى كامل في سبتمبر سنة ١٨٩٠ إلى الكاتبة الفرنسية الحرة مدام جولييت آدم التي خصصت جانبا عظيما من جهودها لخدمة القضية المصرية والحملة على الاحتلال. وفي نوفمبر من العام نفسه كتب إلى الوزير الإنجليزي لورد سالزبري خطابا يرد فيه على الحملة الشعواء التي شنها اللورد على الخليفة في قاعة جلدهول، فلما نشر هذا الخطاب أثار اهتماما شديدا في أوروبا، ولم يلبث هذا الاهتمام أن تجدد حين مكتب المرحوم إلى مستر جلادستون زعيم الأحرار يطلب إليه تصريحا في شأن المسألة المصرية يكون له أعظم قيمة في هذه الأيام التي يحسب فيها الجمع الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الإسلام. لما جاء في الخطاب بصريح العبارة فرد مستر جلادستون بخطاب يقول فيه أنه مجرد بالمرة من كل بساطة وإن آراءه لم تتغير قط وهي دائما يجب علينا أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف وفي فائدة مصر نفسها العمل الذي من أجله دخلناها، وأن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين.

وعاد مصطفى كامل إلى مصر ثم غادرها في أغسطس عائدا إلى أوروبا

لمواصلة نشاطه الوطني في عواصمها، وقصد في أواخر أكتوبر إلى الأستانة حيث تشرف بمقابلة السلطان عبد الحميد أول ما قال السلطان حين رأى مصطفى كامل: "إني كنت أظنك رجلا مسنا، ولكنك لا تزال في حداثة العمر، فبارك الله فيك.."

ولما أراد السلطان بعد أيام أن يمنحه بعض الرتب والنياشين اعتذر قائلا: إن وطينته خالصة لا تبتغي أجرا ولا تسأل فخرا وقد خشي أن تروج بضاعة الأعداء ضده «ويتهمني أبناء وطني العزيز بالعمل حبا في الظهور ونيل هذه الألقاب الكاذبة!» وهكذا ظل مصطفى كامل لا يحمل رتبة حتى أنعم عليه السلطان في سنة ١٨٩٩ برتبة المتمايز ثم بالرتبة الأولى ثم برتبة الباشوية بعد بضع سنوات ..

كان مصطفى كامل يعتمد في كفاحه على قوى ثلاث لم تلبث أن تلاشت آماله فيها جميعا واحدة بعد واحدة، فلقد كان يعتمد أولا على نفوذ الخديوي عباس الثاني ولم يكن أي منهما يبذل أقل جهد في إخفاء العلاقة السياسية الوثيقة بين أمير البلاد وزعيمها فكان الخديوي وأنصاره على اتصال ظاهر غير منقطع بمصطفى كامل، وكان مصطفى كامل من جهته لا يتردد في الإدلاء بالأحاديث إلى الصحف الأوربية مجاهرا فيها بخطة الخديوي ونياته حتى لنراه يقول مرة في غير تحفظ ولا مداراة: إن خطة الخديوي هي انتظار الظروف ليستعد أحسن لاسترداد حقوق البلاد المهضومة، ولا غرابة في أن يحرص مصطفى كامل على هذه العلاقة ويعمل على توثيقها بترديد عبارات الولاء للخديوي وانتهاز كل فرصة للإشادة بذكره تفاديا للوقوع في الشرك الذي نصب لكل زعيم شعبي قبل مصطفى

كامل وبعده وهو اتهامه بالسعي إلى السلطان من طريق التقرب إلى الجماهير، هذا إلى أن مصطفى كامل داعية إلى تخليص البلاد من احتلال المحتلين وتدخلهم في شئون مصر: فكان طبيعيا ومنطقيا أن يكون داعية لاحترام حقوق الحاكم الشرعي للبلاد ومناصرته في صراعه ضد المحتل الدخيل.. ولكن عدول الإنجليز عن سياسة المشادة والعنف مع الخديوي إلى سياسة اللين (والوفاق) التي اختطها خلف اللورد كرومر، وميل مصطفى كامل وأنصاره إلى مجالسة رجال حزب الأمة وأمثالهم ممن ناصروا العميد البريطاني السابق في صراعه مع الخديوي عباس وطمع الخديوي في أن يحصل بسياسة الوفاق على ما لم يكن إليه سبيل في أيام سياسية النزاع، كل ذلك أدى به إلى التنكر لمصطفى كامل وزملائه، فسقط بذلك سلاح من أسلحة الزعيم الشباب في كفاحه.

وكان ثاني أسلحة مصطفى كامل في جهاده: الاستعانة بأوروبا لنصرة قضية مصر وتخليصها من احتلال الإنجليز، ولا غرو فقد كان التنافس الدولي أواخر القرن الماضي على أشده وكانت دول العالم بغير استثناء تنظر إلى بريطانيا نظرة الريب والحسد وتسودها جميعا روح الرغبة في الحد من نفوذ الإنجليز أو منع اتساع هذا النفوذ على الأقل، وكانت الخصومة الفرنسية الإنجليزية قريبة الشبه بالخصومة الإيطالية الإنجليزية التي نشهدها اليوم بل كانت تفوقها مرات، وكانت ألمانيا ممتلئة بالقوة معتزة بانتصارها بعد حرب السبعين إمبراطورية لا تقل عن الإمبراطورية البريطانية في الشأن، وكانت الدول جميعا وفي مقدمتها روسيا وتركيا تعلق أهمية كبيرة على مصير منطقة البحر الأبيض المتوسط وقناة السويس.

يضاف إلى هذا كله أن فرنسا على وجه خاص كانت تتمثل لمصطفى كامل وأمثاله رسولا من رسل الحرية والاستقلال لا لبلدها وحدها بل لأي بلد في العالم.. ألم يكن لها نصيب مذكور في جهاد الولايات المتحدة واليونان وبلجيكا وإيطاليا للظفر بحقها في الحرية والفكاك من قيود الاستعمار؟

على أن هذا الأمل في معونة الدول الأوروبية لم يلبث أن انهار واندكت قوائمه حين عقدت إنجلترا مع فرنسا الاتفاق الودي المشهور سنة ١٩٠٤ وهو الاتفاق الذي يعد وثيقة نادرة في تاريخ الاتفاقات السياسية بين الدول، وحسبك أن يقضى جهرة بأن كلا من الدولتين تتيح للأخرى حرية التصرف كيفما شاءت في البلد الذي أنشبت فيها أظافرها إنجلترا في مصر، وفرنسا في المغرب الأقصى ولكن من الخطأ أن يعتقد أحد أن مصطفى كامل لم يفقد أمله في فرنسا وأوروبا إلا حين عقد هذا الاتفاق؛ فهو في الواقع قد رأى قبل ذلك بسنوات من تلون السياسية الأوربية، ومن تناقض فرنسا مع مبادئها، صورا كانت كفيلة بزعزعة ثقته في معونتها المجدية فتراه يكتب إلى مدام جولييت آدم من بودابست في ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٠. فيقول لها

"أنت الوحيدة التي تمثلين أمام عيني الهمة والإقدام أن السياسة الأوربية فرنسا القديمة، فرنسا بلد الهمة والإقدام! إن السياسة الأوربية تبغض إلى بكل جوارحي المدنية الحديثة، ولكن السياسية الفرنسية تعكس أمري وتجعلني ذاهلا أمام التناقض الغريب في تاريخها عجيبا.. أنسيت فرنسا فاشودة أن الحكومة الفرنسية لم تعمل عملا سياسيا واحدا يجعلني

آملا فيها"،

وفي خطاب آخر إلى مدام جولييت آدم أيضا كتبه من فيشن في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠٣ يقول:

"قرأت مع أصدقائي بكل تحسر ما دار من الخطب في لندن في سبيل تقرب فرنسا من إنجلترا، والظاهر أن دلونكل كان من المحتفلين بهذا العيد، إنني أصبحت ولا شيء يدهشني في هذا الوجود فكل شيء جائز الوقوع!"

ودلونكل الذي يشير إليه مصطفى كامل هو كما يذكر القراء النائب الفرنسي الذي قدم مصر لدرس القضية المصرية واحتفى به زعيم الشباب المتحمس وإخوانه..

أما ثالث الأسلحة التي كان يعتد بها مصطفى كامل في جهاده فهو الاستعانة بتركيا واستمداد نفوذها لإنقاذ مصر، وقد بالغ في الاعتماد على الباب العالي والارتماء في أحضانه حتى استباح لنفسه أن يدافع عن تركيا حين أرادت اقتطاع بعض المواقع في داخل حدود مصر! ولكن للمسألة ناحية جديرة بألا تغيب عن البال عند العرض لهذه النقطة من تاريخ مصطفى كامل، فإن تركيا كانت إلى ذلك الحين دولة إسلامية لم ينفصل فيها الدين عن الدولة على نحو ما ترى اليوم، بل كانت زعيمة الدول الإسلامية ومقر الخلافة المقدسة، وكان السلطان عبد الحميد هدف السياسة الأوربية، تعمل على تقويض مركزه السياسي الذي قام إلى أكبر حد على دعائم مقامه الديني الخطير.

وكان مصطفى كامل يعلم ذلك كما يعلمه معظم المسلمين المستنيرين،

وكان مؤمنا بأن أوروبا إنما تشن على دار الخلافة (حربا صليبية في شكل سياسي) على حد تعبير السلطان عبد الحميد، ولم تكن الدعاية المسمومة الهائلة ضد السلطان عبد الحميد قد فعلت فعلها في نفوس المسلمين عامة، والشبان على نوع خاص؛ فلم يكن أحد يسيغ حينئذ كما يسيغ اليوم كثيرون أن يسمى السلطان عبد الحميد (بالسلطان الأحمر) أو عبد الحميد الملعون، أو نحو ذلك مما بذلت دول الغرب جهودا سياسية أدبية جبارة حتى نجحت في نشرة على السنة المسلمين قبل سواهم. وإنما كان المصريون يعرفون أن لهم على ضفاف البوسفور زعيما روحيا هو حضرة صاحب الجلالة الشاهانية السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين (وهذا الخليفة هو الذي تناصبه أوروبا العداء ولا تني تحرك ضده مؤامرات الأرمن للعدوان على حياته.

كان مصطفى كامل إذن يمثل شعور المصريين عامة في تقربه من الخليفة والحرص على رضائه والذود عن مقامه الأدبي مع الاستعانة بنفوذه السياسي.. يضاف إلى ذلك أن الباب العالي كان من الوجهة الشرعية النظرية صاحب الحق في هذه البلاد فلماذا لا نستنهضه ونتعاون معه ونتقرب إليه ونعمل معه متكاتفين على إقصاء الإنجليز عن بلد يصرحون هم أنفسهم بأن ليس لهم حق شرعي فيه؟ ليس هذا الوضع أقرب عمليا– لتحقيق أماني البلاد من إنكار كل حق لتركيا في مصر ومطالبة إنجلترا في الوقت نفسه بالجلاء لنظفر عندئذ بوضع سياسي لم نستطع أن نظفر به من قبل؟

على أن هذا السلاح كذلك لم يلبث أن قل وسقط من يد الزعيم

الشباب على أثر النزاع الذي قام بين الباب العالي وإنجلترا حول حدود مصر في سنة ١٩٠٦ فقد أرادت تركيا إخراج شبه جزيرة سيناء من حدود مصر، فلما رفضت إنجلترا ذلك محتجة بأنه يناقض الفرمان السلطاني الذي ورد إلى إسماعيل باشا سنة ١٨٧٣ عمدت تركيا إلى المراوغة فتظاهرت بالرضى ثم احتلت قرية طابا عند العقبة بدعوى أنها ليست في الحدود التي عينها في فرمان إسماعيل، وعندئذ استحكم الخلاف بين الدولة العلية المحتلة وأخذ مصطفى كامل يكتب ويناضل مدافعا عن وجهة النظر التركية. ولكن النزاع ما عتم أن انتهى بتراجع تركيا وخذلناها خذلانا نزع من صدور المصريين آخر ذرة من الأمل في استعداء الباب العالي على الإنجليز.

ولقد استشعر مصطفى كامل مرارة غير قليلة إزاء تهاوي هذه الأسلحة واحدا بعد آخر، فتراه يقول عن انفصام عرى التعاون بينه وبين الخديوي: «... إن مقاطعتي للخديوي علمتني أمورا كثيرة وقد تغير حكمي على الرجال تغيرا تاما، فقد رأيت كثيرين ممن كانوا حولي ما كانوا يميلون إلى اتجاهي وقد هجروني الآن ولست بآسف عليهم، بل أنا على العكس من ذلك لأن لا شيء يعود بالضرر على رجل العمل في الشعور الكبير مثل الصداقة الزائفة. وبعض أمراء البيت الخديوي يدعون أني لا أحترمهم كما ينبغي، وما علمت ذلك حتى عزمت على أن لا أقرئهم السلام أصلا. واعتقادي أني مصيب في هذا. فقد آن لنا معشر المقهورين المظلومين المغدور بنا ألا نحترم غير قيمة المرء الأدبية وأعماله الحسان!

ويقول قبل ذلك لمدام جولييت آدم تعليقا على اتفاق سنة ١٩٠٤

"لا أجد لنفسي عزاءً إزاء هذا الوفاق الإنجليزي الفرنسي المشئوم.. كما

أنه ليس في وسع جميع مدارس القطر أن تربط المصريين بفرنسا بعد الآن، وأن مواطني ليكرهون اليوم فرنسا أكثر من إنجلترا نفسها!.. إني أتألم ألما مزدوجا، أتألم لك ولي. وإلا فاذكري أن فرنسا هي أول دولة صادقت على الاحتلال بعقد رسمي.. يا لها من ذلة للوطنيين المصريين والفرنسيين إنك لا تدرين مبلغ تشامخ الإنجليز في الوقت الحاضر، فإنهم يسخرون منا نحن صغار الأحلام الذين اعتمدنا على فرنسا ولهم الحق أن يسخروا!".

وعلى أثر خيبة الرجاء في تركيا وقف يخطب في الإسكندرية فيقول.

«فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال، ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أهل الأرض كلها، وأننا إذا خطبنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل تغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضي بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون»

ومع ذلك فقد اضطر مصطفى كامل إلى أن يعلن في رأس برنامج الحزب الوطني أن غرض الحزب هو استقلال مضر الداخلي فقط. وقد علل هو نفسه سر ذلك بقوله في خطاب إلى مدام جولييت آدم تاريخه ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٧

«.. أما الإنجليز فلكي ينقموا استكتبوا الجرائد التي تخدمهم أني أريد أن أصير خديويا، ولكني ما تركتهم يتمادون في طغيانهم، بل صرحت بأن أول مادة في برنامجي في استقلال مصر الداخلي مع بقاء الحكم في بيت محمد علي، وكل عملي واضح يثبت أني وفي صديق للخديوي وللمصريين، وقد ألجم هذا التصريح أفواه الأعداء، وقابلت الأمة هذا البرهان الجديد على نزاهتي بخالص الابتهاج »

***

ولكن مصطفى كامل، على الرغم مما حز في قلبه من مرارة وآلام لم يسمح يوما لليأس أن يطرق إلى فؤاده: ".. إني أكون وحدي حزبا قد توفر له على الرأي العام ولكنه وحيد مؤازر .. وأرى كذلك اليوم القريب الذي لا يطيق فيه الإنجليز أن أقترب من الخديوي، ومع ذلك فلا ريب في أنني سأواصل كفاحي حتى الموت!" (١٠ مايو سنة ١٩٠٤إلى مدام جولييت آدم)

«إن الابتعاد عن الخديوي من شأنه أن يجعل لي مركزا خاصا وسلطانا كبيرا. وطالما كانت هذه الشعلة الوطنية تؤازرني فإني لا أهاب شيئا، ولا أرهب أحدا في الوجود" ١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٤

"إنه أن أشق الأعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس! وليس هناك شيء يؤلمني أكثر من الانحطاط الأدبي الذي استولى على أولئك الذين كان يجب عليهم أن يكونوا أكبر الناس شمما وشهامة. لا تتخذي من هذا دليلا على الفتور، ولكنها زفرة متألم فإني مازلت ولن أزال أبذر الصالح وأمثل الأمل الحي بالرغم من كل شيء حتى لا تنسى مصر في أمسها ولا في الغد!» (٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٤)

"إني عندما أرى من الكبراء جبنا أشعر بأني أكبر منهم، وإن اجتماع وطنيتي وكرامتي ينفخ في روحا عالية" (١٦ فبراير سنة ١٩٠٥)

"إني أعمل واجدا في الحركة والجهاد أجمل تعزية، وقد أراد الله أن أكون المصري الوحيد الذي يرفع لواء الاستقلال، وإني شاكر نعمته هذه التي خصني بها، وهذا النشاط العظيم يؤتيني خيرا؛ فإن مواطني الذين كانوا

يعتقدون أو يخشون أني لا أقوى على السير بغير عضد من الخديوي يعجبون جهارا وبكل وفاء بهذه الحيوية والإرادة الحديدية!" (٩ مارس سنة ١٩٠٠)

وهكذا نستطيع أن نحصى في كل يوم من أقوال مصطفى كامل ما ينطق بقوته المعنوية التي لم يتسرب إليها من اليأس كثير ولا قليل؛ فلا عجب إذ رأيناه مشغولا برسائله وخطبه وأحاديثه السياسية وإنشاء صحف اللواء الثلاث بالعربية ثم بالإنجليزية والفرنسية وبالدعوة المشروع الجامعة المصرية، فلما وقعت مأساة دنشواي نهض مصطفى كامل بكل جبروته وكل ما وهبه الله، من حمية وقوة بيان وطلاقة لسان؛ فزلزل الأرض تحت أقدام المحتلين وألهب الشعور الوطني إلهابا. وأنزل العميد العتيد كرومر من عليائه مؤلبا عليه شعوب العالم المتمدن كله، وفي مقدمتهم الشعب الإنجليزي نفسه، ومازال مصطفى كامل يكتب ويستكتب ويخطب ويناضل في مصر وإنجلترا حتى أقصي كرومر عن مصر على أسوأ صورة، ثم صدر العفو في ٨ فبراير سنة ١٩٠٨ عمن كانت المحكمة العسكرية قد ألقت بهم ظلما في غيابة السجن.

وكان هذا النصر الباهر خاتمة جليلة لحياة مصطفى كامل أعظم شاب في تاريخ مصر؛ فقد ناءت صحته بكل ما كان يحملها من أعباء الجهاد تلميذًا وطالب حقوق وصاحب رسالة وطنية سامية، وقد صدق مصطفى كامل إذ كتب إلى مدام جولييت آدم من فيشي سنة ١٩٠٣ يقول: «أن الأطباء قد رأوا أنه من اللازم أن أمشي في الجبل بعض الزمن إذ أخذ النصب، يستولي على أعصابي واهم الحق في ذلك فإني ما رحمت نفسي"..

وكان صادقا كل الصدق مصورا للحقيقة المجردة، حتى كتب إليها في ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٥ يقول:

"إن العمل قد أضناني إلى حد أشعر عنده بسرعة الحاجة إلى ترك الوسط الذي أعيش فيه، وكانت الطبيعة قد خالفت سنتها إذ جعلت قوة روحي أكبر من قوة جسمي".

وقد بلغ الإعياء مداه بمصطفى كامل بعد الجهاد الجهيد الجبار الذي بذله لإعداد خطبته العتيدة التي ألقاها في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ بالإسكندرية؛ فكانت خطبة الوداع، وقد كتب في٧ يناير سنة ١٩٠٨ يقول: "إني مريض جدا منذ السابع عشر من شهر نوفمبر، وقد بذلت مجهودا فوق الطاقة لإلقاء خطبتي في الجمعية العمومية للحزب الوطني، وإن نجاحي السياسي ونجاح المسألة المقدسة التي أناضل عنها يفوقان كل ما أملته، أما صحتي فهي بين اليأس والرجاء والأطباء مطمئنون الآن والسبب في انتكاسي بعد خطبتي راجع إلى مفاجأة المنون صديقا حميما لي كان من أشد نصرائي وأكبرهم « المرحوم لطيف باشا سليم"

ولم ينقض على هذا الخطاب شهر وبضعة أيام حتى روعت مصر ترويعا بفقد مصطفى كامل، فلم يبق في مصر كلها بيت واحد لم يشعر بأن فجيعة فادحة نزلت بين جدرانه. وكان الاحتفال بتشييعه يوما مخلدا في تاريخ مصر وهيهات للقلم أن يصور جلال هذا اليوم ورهبته، فكان هذا الشعور الفياض الحي انتصارا لمصطفى كامل بعد موته ودليلا باهرا على مبلغ توفيقه في أداء رسالته.

كنت أحب أن تنتهي هنا ترجمة مصطفى كامل، وهي غنية عن كل تنميق أو تزويق، ولكني أنتهز هذه الفرصة لأرد ظلما تاريخيا صارخا لاحظته في البحث القيم الذي وضعه الأديب الكبير الدكتور هيكل باشا عن حياة مصطفى كامل؛ فقد رأيته يقول أن المصريين لما رأوا فشل السياسة الأولى التي جروا عليها سياسة الاعتماد على فرنسا ثم على أوروبا ثم على الباب العالي، قدّر جماعة منهم أن لا بد من الأخذ بسياسة أخرى هي إعداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الإيمان بنفسها في نفسها لا لمجرد كراهية الإنجليز ولا حبا في الباب العالي ومقام الخلافة السامي، ولكن حبا في الاستقلال والحرية لذاتهما، وكان لطفي السيد بك وزير المعارف السابق لسان الذين فكروا هذا التفكير والذين اعتزموه.

لبت دعوتهم إصدار جريدة (الجريدة) على أن نفس مصطفى كامل لم تطاوعه ليرى في ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه، لذلك هاجم الجريدة قبل صدورها، وهو من أعرف الناس بصديقه لطفي السيد وبالذين كانوا على رأيه.

فهنا مثل بارز لما يمكن، بل يتحتم أن يصيب حقائق التاريخ حين يعرض لها الكاتب السياسي لاسيما إذا كان قريب العهد من هذه الحقائق، وثيق الاتصال ببعض أشخاصها، فالدكتور هيكل باشا ولو أنه السياسي المشهور وصلته بصاحب السعادة لطفي السيد باشا (والذين كانوا على رأيه) صلة معروفة لا تنكر، هيكل باشا هنا يعزو حملة مصطفى كامل على الجريدة إلى أنه لم يكن يطيق أن يرى في ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه، والحقيقة التي يعرفها الذين عاصروا ذلك العهد أن حزب

الأمة الذي كن لطفي السيد. بك من أساطينه ومؤسسيه، كان حربا على السلطة الشرعية في البلاد وعونا حليفا صادق الوعد لعميد الاحتلال، والحقيقة التي يعرفها الذين عاصروا ذلك العهد أن جريدة الجريدة لسان حال هذا الحزب ولدت تحت رعاية دار الحماية، فإذا لم يعجب الدكتور هيكل باشا هذا التعبير، فلنقل أنها ولدت تحت رعاية وتشجيع العميد البريطاني ورضاه، حتى لقد سمح حينئذ للموظفين بأن يشتركوا علانية في الاكتتاب لإنشائها مع السلطان الشامل الكامل الذي كان للإنجليز على الموظفين آنذاك، والحقيقة التي يعرفها الذين عاصروا ذلك العهد أن الدعوة التي كان يدعو إليها رجال حزب الأمة إلى الأخذ بسياسة غير سياسة مصطفى كامل هي إعداد أمة بأدوات استقلال من علم وخلق وغرس إيمان بنفسها في نفسها لمجرد كراهية الإنجليز ولا حبا في الباب العالي »

لم تكن إلا دعوة لخذلان مصطفى كامل في جهاده الجريء الصريح لإجلاء الإنجليز عن مصر ومواجهتهم بالعداء لأن وجودهم كفيل بإفساد كل حركة جدية ترمي إلى الإصلاح ونشر التعليم والأخلاق، فكانت دعوة حزب الأمة لذلك دعوة للانشقاق ففي مذكرة لتغلبة رجال ذلك الحزب في مصانعتهم وتمسحهم بالإنجليز.

وبهذا حارب مصطفى كامل جريدة (الجريدة) قبل صدورها، ولقد كان جديرا به أن يهاجمها لاسيما "وهو من أعرف الناس بصديقه لطفي السيد والذين كانوا على رأيه"

جان دارك

قد يبدو من المستغرب أن نخص جان دارك بفصل من فصول هذا الكتاب الذي يتناول تراجم عدد من أشهر العظماء (الشبان)، وأظن أن لفظ (الشبان) يطلق على الجمع المختلط من الجنسين، ولكن هذا وحده ما كان ليقوم عذرا سائغا لإقحام ترجمة جان دارك بين دفتي هذا الكتاب، وإنما يشجع على ذلك ما عرف عن شهيدة الوطنية من خروج على مألوف الحياة النسوية الوديعة إلى الخشونة والتشبه بالرجال حتى فيما يلبسونه من أزياء.

ولقد كان لمسألة الزي هذه أثر عظيم في تاريخ جان دارك وفي توجيه الدسائس التي انتهت بإعدامها. وما زال المؤرخون يختلفون أشد الاختلاف في تعليل استمساك جان دارك بهذا الزي حتى في المناسبات التي كان ينبغي أو تتغلب فيها الطبيعة النسوية، فأولى لفتاة ناضرة الشباب أن تطرح زي الرجال لتتزين بأثواب النساء

عرض برنارد شو لهذه النقطة بالتحليل في المقدمة المستفيضة التي قدم بها روايته المشهورة عن جان دارك. فتساءل: "لماذا لم تذهب فتاة كهذه تحمل رسالة خاصة من السماء إلى ولي العهد؟ (فهكذا كانت تنظر جان دارك إلى المشروع الذي وضعته بمهارة واثقة لتخليص ذلك الملك غير المتوج من ورطته الشنعاء)– لماذا لم تذهب فتاة كهذه بكل بساطة إلى البلاط في ثياب النساء، لإقناع ولي العهد على طريقة النساء بقبول

مشورتها كما جاءت قبلها نساء أخريات يحملن مثل هذه الرسالة إلى والده المجنون وجده العاقل؟! لماذا كانت تصر على أن يكون لها ملابس الجندي، وأن يكون لها ما له من سلاح وسيف وجواد وعدة، ولماذا كانت تصر على معاملة الرفاق، فتنام معهم على الأرض جنبا إلى جنب يجن الظلام كان لم يكن بينهما وبينهم فارق جنسي؟

قد يرد على ذلك بأنه هذه كانت أسلم وسيلة للسفر في بلد تشيع بين أنحائه جنود الأعداء وعصابات الناهبين الآبقين من كلا المعسكرين، وهذه إجابة لا يقام لها وزن لأنها تنطبق على كل امرأة كانت تسافر في فرنسا حينئذ، دون أن تحلم بالسفر في غير ثياب النساء، وحتى إذا قبلنا هذا الرد، فكيف نطبقه على الحقيقة الواقعة وذلك أنه حتى بعد أن زال الخطر وأصبح في مستطاعها أن تقصد في ثياب النساء إلى القصر الملكي حيث تكون في مأمن تام ويكون ملبسها بالطبع أكثر لياقة فتجدها رغم ذلك تذهب في زي الرجال، ثم هي بدل أن تحث شارل، كما كانت الملكة فكتوريا تحث وزارة الحربية على إرسال روبرتس إلى البرتغال– على إرسال دالنسون وديريه ولاهير وغيرهم لنجدة دينوا في أورليان بدل أن تفعل ذلك تصر على أنها يجب أن تذهب بنفسها لتتولى القيادة في حملة الهجوم؟ ولم هذه الحركات الاستعراضية التي كانت تقوم بها تدليلا على مهارتها في الرمي بالحراب وبراعتها في ركوب الجياد؟!

وفي أثناء محاكمة جان دارك الأولى سألها بوبير عضو المحكمة (إن صح أن يطلق على مثل تلك الهيئة المأجورة هذا اللفظ).

- أي ثوب كنت ترتدين؟

- كنت أرتدي ثوبا من ثياب الرجال وأتمنطق بسيف أخذته من دي بودريكور ولم يكن معي سلاح غيره.

ولكن المحكمة لم تكن معنية السلاح الذي كانت تحمله جان، بل كان همها الأكبر مسألة الزي الذي حرجت به على المألوف وتشبهت بالرجال، فعاد بوبير يسألها.

- ومن الذي نصح لك بأن ترتدي ثوب الرجال؟

ولما فطنت جان إلى أن المقصود استدراجها إلى إجابة معينة هي أن (أصوات) جان المقدسة هي التي نصحت لها بذلك، ومن هنا تستطيع المحكمة التنديد بتلك الأصوات التي توحي بما يخالف تقاليد الكنيسة وتعاليمها - لما فطنت جان إلى ذلك رفضت بإصرار أن تجيب على السؤال رغم تكراره، طالبة إلى القاضي أن ينتقل موضوع آخر! ولكنه لا يكاد (ينتقل إلى موضوع آخر) حتى يعود إلى مسألة الزي فيسألها.

- هل (الصوت) هو الذي نصحك بهذا الزي؟

فتفادت الجواب الصريح قائلة في لباقة نادرة:

- أعتقد أن (الصوت) كان يزودني دائما بنصائح طيبة.

ولما صدر الحكم بالسجن المؤبد على جان ذهب وراءها كوشون، رئيس المحكمة الخائن، ولفتها إلى أن من بين الشروط التي أخذت عليها ووقعتها، نصا تتعهد فيه بألا تعود إلى ارتداء زي الرجال، فإذا فعلت كانت

كافرة تستحق أن تموت حرقا، وبهذا وضعت الخطة التمهيدية، كما يعتقد بعض المؤرخين، غير الإنجليز لاستبدال حكم الاعدام بحكم السجن المؤبد، فقد عادت جان دارك إلى التزين بأزياء الرجال إما عن طواعية أو إصرار على العناد، وإما عن دسيسة مدبرة كما يقول بعض المؤرخين، وفحوى هذه الدسيسة أن جان تفقدت ملابسها النسوية ذات يوم في السجن فلم تجدها وإنما وجدت على مقربة منها بعض ملابس الرجال فاضطرت إلى ارتدائها. ولكن الذي يلفت النظر هو أن جان نفسها حين حضر كوشون إلى السجن على الأثر لاستجوابها لم تذكر له شيئا عن هذه الدسيسة مع أنها لو فعلت لما أثر ذلك في كرامتها أو قدسية رسالتها

ويزيد الأمر غرابة أن أحد القضاة قد صرح فعلا بارتيابه في أن تكون جان قد عادت إلى ملابسها طائعة مختارة دون أن يشعر بذلك رجال الحرس، ومع ذلك نرى موقف هذا القاضي لا يشجعها على انتهاز الفرصة للكشف عن الدسيسة والدساسين، وتعزيز نظرية القاضي بالأدلة والبراهين فقد سئلت جان دارك.

- لماذا عدت إلى هذا الزي؟

فأجابت أجابه صريحة واضحة لا محل معها للتأويل والتجريح إذا قالت:

- عدت إليه مدفوعة برغبتي!

فقيل لها أنها تعهدت وأقسمت أن لا تعود إلى هذا الزي، فأجابت في شجاعة وجرأة وجدل منطقي سديد:

– لم أنو قط ولا عنيت قط ألا أعود إليه، فإذا لم أكن قد أوفيت بالعهد فإن أحدا منكم لم يبر بوعده معي، فقد قطعتم لي عهودا كثيرة أذكر منها أن تفك عني هذه الأغلال، ولكنها لا تزال ترهقني إلى اليوم!

فلما سئلت مزيدا من التفسير والإيضاح ازدادت جرأة وصراحة وصلابة، فقالت أنها عادت إلى زي الرجال لأنها وجدت نفسها بين الرجال فآثرت أن تكون مثلهم صلابة، فقالت أنها عادت وأن الموت خير لها من أن تعود إلى زي النساء، إلا إذا سمح لها بتأدية الصلاة ونقلت إلى سجن مناسب يتولى النساء حر استهامته. وهذه الحجة التي ذكرتها جان، حجة الوجود بين الرجال، تبريرا لارتدائها أزياءهم تعززها فتوى سابقة، لعلها هي التي أوحت إلى جان بهذه الإجابة، وهي فتوى اثنين من العلماء، قبيل اقتناع الملك بتعيينها قائدا عاما للجيوش الفرنسية وكان أحد هذين العالمين عميدا لجامعة باريس، تلك الفتوى التي أعلنا فيها أنه لا تثريب على جان دارك في أن تتزي بأزياء الرجال ما دامت تقوم بأعمال الرجال!

وطبيعي أن لا يقتنع كوشون وأعوانه بهذه الإجابة، وأن يبادر إلى استدعاء هيئة المحكمة لإصدار الحكم بإعدام جان دارك، وسواء أكان في الأمر دسيسة أم لا، فإن هذا لا يغير شيئا من جوهر الموضوع، وهو أن مسألة شخصية كهذه قد اتخذت تكأة للانتقام السياسي من هذه الشهيدة المخلصة، ولو لم تكن جان دارك قد عادت إلى زي الرجال لما عدم كوشون وسادته الإنجليز ألف وسيلة أخرى للوصول إلى ما يرومون.

إن جاك دارك عند الفرنسيين رمز الوطنية الصادقة والتضحية الغالية في سبيل الوطن. والوطنية في ذاتها صفة جديرة بالإعجاب بالتمجيد، ولكن

جاك دارك تمثل عندنا ناحية أخرى أجل وأعظم من الوطنية، وهي الإيمان!

الإيمان الصادق الراسخ الذي ينبعث من القلب!

الإيمان القوي الجبار الذي يزعزع راسخات الجبال!

الإيمان الرائع العتيد الذي يجل عن المطامع والمغانم. ويسمو على الصعاب أو العقبات، يرتفع بصاحبه إلى مقام لا يرى فيه إلا النور واليقين، والإرادة التي لا تعبأ بالعوائق ولا تخضع لما يخضع له سائر البشر من قيود وأثقال!

ولدت جان دارك في قرية دوفريمي عند ملتقى مقاطعة تشسبين بمقاطعة اللورين بفرنسا في ٦ يناير سنة ١٤١٢ في بيت متوسط الحال وكانت أمها سيدة تدعى إيزابيل موسومة بالصلاح والتقوى، شديدة المواظبة على أداء الفرائض الدينية في الكنيسة، ولم تكن الكنيسة بعيدة عن البيت، بل لم يكن يفصل بينهما سوى حديقة صغيرة؛ فتهيأت لجان بذلك أسباب الإيمان الديني بحكم التردد المنتظم على الكنيسة وبعمل القدوة الحسنة ممثلة في الأم التقية الصالحة، وقد غلبت طبيعة التدين على الفتاة حتى تفردت دون صويحباتها بقلة النزوع إلى اللهو، وشدة التمسك بشعائر الدين وقضاء الشطر الأكبر من وقتها في أداء فرائضه.

وكان والد جان رجلا صاحب حقول واسعة يستغل جانبا منها في تربية الضأن، وكان يرعى غنمه بنفسه أحيانا ويعهد بذلك إلى أبنائه وبناته أحيانا أخرى شأنه في ذلك شأن أنداده من الريفيين الذين لا يصرفهم لهو المدن ولا زخرف الثروة المتوسطة عن واجب العمل يتولونه بأيديهم ويدفعون إليه أولادهم.

وهكذا قدر لجان دارك أن تتولى في طفولتها الأولى عملا قلما تجد بين الأنبياء والرسل من لم يشتغل به قبل الرسالة، وهو رعاية الغنم، وليس بعسير على الإنسان أن يعلل السر في هذا الارتباط بين النبوة والرسالة وتلك المهنة، ومرجع السر فيما نعتقد هو هذه الوحدة التي تتيح للإنسان أن يخلو إلى نفسه بعيدا عن لغط الناس، وتناحرهم على البقاء. وفي ظل هذه الخلوة الهادئة يتخلى اللسان عن وظيفته فيهيئ الجو الصالح لمناجاة الضمائر وتطهير القلوب والسرائر. والسرائر الطاهرة والقلوب العامرة كانت دائما أساس الخير الشامل والإصلاح القائم على أوطد الدعائم.

على أن جاك دارك قد وجدت لمناجاتها مادة غير الاصلاح الديني أو الخلقي. أن اتجهت بحكم البيئة العامة التي نشأت فيها وجهة أخرى من وجهات الاصلاح والتقويم، ونعني بها وجهة الجهاد الوطني الذي لم يعرف العالم سلاحا لمن يخوضون غماره أقوى من سلاح القوة المعنوية والإيمان الوطيد.

فقد ولدت جان دارك والاحتلال الإنجليزي منشب أظفاره في عنق فرنسا التي كانت قد أنهكتها الحروب ومزقتها الفتن والمنازعات الداخلية، وكان شارل السادس ملك فرنسا رجلا ضعيف الهمة ضعيف العقل فارتبط مع هنري الخامس ملك إنجلترا بمعاهدة تروي سنة ١٤٢٠ وبين بنود هذه المعاهدة أن يتزوج ملك إنجلترا بأميرة فرنسية معينة، وأنه إذا مات شارل السادس دون أن يترك وارثا شرعيا آل عرش فرنسا بعده إلى ملك الإنجليز. وواضح أن نصا كهذا يفتح باب الدسائس والمؤامرات ليتخلص الإنجليز من ولي العهد إذ ذاك (الدوفن) الذي لم يكن أوفر حظا في

الشجاعة أو العقل من أبيه. فلم تكد المنية تعاجل شارل السادس بعد توقيع هذه المعاهدة المشؤومة حتى استكتب الإنجليز الملكة المستهترة إيزابيلا أن ولي العهد ليس ابنا شرعيا لها، وبهذه الوثيقة المخزية استباح الإنجليز أن يضموا عرش فرنسا إلى ملكهم الطفل هنري السادس مستندين إلى ما نصت عليه معاهدة تروي.

فلما حاول ولي العهد على ضعفه أن يسترد حقه المغصوب شتت الإنجليز شمل عسكره الواهن المتخاذل وهزموه شر هزيمة في موقعه فرناي سنة ١٤٢٤ فارتد إلى أوليان واحتمى في حصونها الحصينة فاقد الأمل والرجاء.

وكانت أنباء هذه الدسائس والوقائع والهزائم تصل قرية دومريمي فتقابل بأشد مظاهر الاهتمام المقرون بالألم والآسى فقد كان أهلها من أكثر الناس حماسة وانتصارا لولي العهد (الدوفين) المغلوب على أمره بينما سائر الأهلين من سكان القرى المحيطة بها يؤيدون دوق برجندي الذي كان يناصر ملك الإنجليز ويمالئه طمعا في أن يظفر بعرش البلاد بعد موت شارل السادس، جزاء تلك الممالأة الآثمة ولم تكن هذه الشئون السياسية والحربية شغل الرجال والشيوخ وحدهم من أهل دومريمي، بل كان الأطفال أنفسهم يتلقونها في مثل لهفة الرجال وجزعهم، وكأنما كانت نفوسهم تتغذى بلبان الوطنية والثورة بينما تتغذى أجسامهم بلبان الأمهات.

في هذه الظروف العصبية وفي هذا الجو المكهرب وفي هذه البيئة المثيرة، ولدت جان دارك وترعرعت ولكنها ما كانت لتنال مكانتها العالية

في عالم البطولة لو لم تنفرد دون أبناء القرية وبناتها، بل مثيلاتها في العالم أجمع بظواهر نادرة إعانتها على أن تشق طريقها إلى الخلود، وأبرز هذه الظواهر وأبعدها أثرا في حياتها من غير شك ظاهرتان: أولاهما تلك الظاهرة التي حيرت المؤرخين، فاختلفوا أشد الخلاف في تعليلها وفي محاولة تفسيرها وسيظلون على خلافهم مادام في العالم أناس يؤمنون بالوحي وآخرون ينكرونه وما دام في العالم قوم يعتقدون بالروحانيات وقوم يجحدون كل شيء سوى المادة والماديات، ونعني بتلك الظاهرة هذا الاتصال الذي كان بين جان دارك وبين (أصوات) القديسات فقد كانت في منتصف عامها الثالث عشر إذ كثر صمتها وطال تفكيرها واشتد شغفها بالعزلة حتى إذا كانت ترعى غنم أبيها ذات يوم أوت إلى شجرة في الغابة، وبينما هي في تفكيرها تستعرض ما آلت إليه حال بلادها من احتلال وإذلال وما انتهى إليه مصير الوارث الشرعي للعرش من ضعف وهو أن إذا بالشجر يشتد حفيف أوراقه، وإذا بالطيور تتجمع مغردة مبتهجة، فلم تكد جان ترفع بصرها إلى أعلى الشجرة حتى شاهدت نورا يهبط عليها من السماء ويغمرها من كل جانب ثم تبينت صوتا يهتف بها.

"جان. لا تخافي. كوني ابنة بارة، فتذهبين لنجدة ملك فرنسا" فلما أمعنت جان النظر في مصدر الصوت رأت أن التي تخاطبها هي القديسة كاترين وبجوارها القديسة إليهما كما تتحدث إلى أمها وأبيها.

ولكنها تكتمت الأمر أقصى التكتم ثلاثة أعوام كاملة أو تزيد طوعا لمشورة (الأصوات) على حد تسميتها للقديستين والقديسين الآخرين الذين كانوا يظهرون لها ويوحون إليها فتنقاد لوحيهم وتصدع بأمرهم لا تني

ولا تتردد ولا تعبأ بخطر ينتظرها أو حائل يصدها عن سبيل الطاعة العمياء لهؤلاء القديسين.

فأما آن جان صادقة فيما روت عن ظهور (الأصوات) وكانت مخلصة في اعتقادها أن القديسات يهبطن من السماء لمحادثتها في خلواتها والإيحاء إليها أولا بالاستعداد لمواجهة المهمة الخطيرة التي ستلقى عن عاتقها، ثم الإيحاء إليها بالخطوات التي تتخذها يوما بعد يوم في أيام كفاحها، فذلك مما لا سبيل إلى الشك فيه مهما يكن وجه التفسير الذي يتلامسه الإنسان تعليلا لهذه الظاهرة، وإنما يتجلى الخلاف على أشده في تكييف الطريقة التي نشأت بها هذه الظاهرة.

فالعامة والمتدينون من الدهماء يعتقدون أن نزول القديسات لمحادثة (عذراء أورليان) حقيقة لا تقبل الشك ولا الجدال، وأن التفسير الوحيد الذي يقبلونه هو أن الله اختص جان دارك بهذه المعجزة ليتم على يديها تخليص الوطن من عبودية الاحتلال.

والخاصة الذين يؤمنون بعلم الأرواح، يفسرون هذه الظاهرة بأن أرواح القديسين قد هبطت حقيقة على الفتاة، على صورة من الصور، وذلك "لإمكان ظهور كائنات روحانية لبعض المستعدين لرؤيتها، تخاطبهم أو تظل ملازمة لصمت عميق.. ومن تلك الأرواح الصامتة ما كان يراه نابليون الأول من الشبح الذي كان يلازمه، ومن المتكلمة الروح التي كانت تظهر لشيخ الفلسفة اليونانية (سقراط) الحكيم وقد صرح هو بذلك وأثبتها له تلميذه (أفلاطون) ونقل ذلك عنه جميع كتاب تاريخه من الغربيين.

والمؤمنون بنظرية العقل الباطن يرون أن هذه (الأصوات) صورة منتزعة من شخصية جان دارك الباطنية. تلك الشخصية التي تتكون في كل إنسان دون أن تخضع للعقل الواعي وتتكيف بالبيئة وما توحي إلى أعماق النفس من مخاوف وآلام وآمال.

وجورج برناردشو يلتمس لهذه الظاهرة تعليلا يقوم على أن لبعض الناس قدرة خاصة على تصور الأشياء تصوراً يكاد يرسمها لهم وهي غير موجودة ومن ذلك أن قوما يستطيعون أن يرسموا على صفحات أذهانهم أرقاما عدة يضربون بعضها في بعض ويطرحون بعضها من بعض ثم يجمعون ويقسمون. وهكذا كأنما يشاهدون في لوح مكتوب وقد كانت جان دارك من أصحاب هذه القدرة الخارقة في ناحية أخرى هي تصور أشخاص القديسين وقد تجسموا أمامها تجسما وراحوا يخاطبونها ويناقشونها.

على أن اختلاف هذه التعليلات كلها لا ينقض حقيقة هي وحدها الجوهر في هذا المقام، وهي أن جان دارك كانت تؤمن بأنها ترى بالفعل شخوصا لا يختلفون عن شخوص الأدميين، وكانت تخاطبهم وتستمع إليهم باعتبارهم قديسين وبوحي هؤلاء القديسين نهضت الفتاة بالعبء الثقيل الذي قدر لها أن تنهض به لننتقل من هذا إلى الظاهرة الثانية التي قدمنا أنها إحدى اثنتين كان لهما أعظم الأثر فيما بلغت جان دارك من مجد وتخليد، وهذه هي طغيان عظيم من روح الرجولة عليها وتغلبها على حركاتها وتصرفاتها حتى في سن الطفولة، فإنه ليؤثر عنها أنها كانت منذ طفولتها مشغوفة بحياة الجندية، ويظهر أن أباها لاحظ عليها ذلك الميل أو سمع عنها حديثا يدل عليه، أو هو قد رآها في المنام بلباس الجند، فما كان

منه إلا أن حذرها مغبة الاندفاع في هذا السبيل، وهددها على نحو ما يفعل بعض الآباء مع أطفالهم بأنه سيبادر إلى إلقائها في اليم لتموت غريقة إذا هي حاولت مخالطة الجنود ومشاركتهم في منتهى الخشنة التي لم تخلق للنساء وواضح أن هذه النزعة لم تفارق جان دارك تحت ضغط هذا التهديد الذي ربما فعل وهي طفلة ناعمة الأظفار، فلما تخطت مرحلة الطفولة لم تعبأ ولم تأبه به.

ومن الثابت عن جان دارك أنها كانت شجاعة إلى حد مجابهة الخطر الذي يكاد يكون محققا غير هيابة لا مترددة. على نحو ما فعلت يوم لقيت مجنونا هائما على وجهه يحمل في يده بلطة مرفوعة للقتل. فانتزعت منه البلطة وهي رابطة الجأش واقتادته من يده إلى المدينة حيث أعيد إلى الأسر الذي فر منه. وليست هذه الشجاعة الخارقة مما يؤثر عادة عن النساء.

وينطوي تحت هذا المعنى ما هو ثابت كذلك من أن جان دارك ظلت ترى الأصوات وتتحدث إليها مرتين أو ثلاثا في اليوم الواحد ثلاثة أعوام كاملة دون أن تطلع على هذا السر واحدا من الناس، كائنة ما كانت صلتها به وثقتها فيه، وعندي أن ذلك من أدل الظواهر على تغلب روح الرجولة على نفسها فلم يكن كتمان السر يوما صفة معروفة من صفات النساء!

أضف إلى هذا كله عزيمة ماضية تندر حتى في الرجال ولولا هذه الصفات التي تجتمع كلها تحت معنى واحد هو (روح الرجولة) لما تمت رسالة جان ولبقي اتصالها (بالأصوات) ضربا من الرؤي ونوعا من المحاورات

الأفلاطونية التي لا تقدم في عالم الواقع ولا تؤخر.

***

بعد سنوات ثلاث من اتصال الأصوات بجان دارك، تلقت أول أمر منها بأن تشرع في العمل لتنفيذ الرسالة التي خصصتها بها العناية الالهية، فذهبت طوعا لمشورة الأصوات إلى حاكم "فوكولير" واستعانت على مغادرة دار أبويها للسفر إلى مقر الحاكم بقريب لأمها يسمى "دوران لاكسار" جاء يدعى بإيحاء جان أن زوجه مريضة تحتاج إلى من يعنى بها ويرجو أن يسمح له بأن يصطحب جان إلى بيته لهذا الغرض، وذهبت جان لمقابلة الحاكم "روبيردي بودريكور" بعد أن أفضت لخالها بمكنون سرها. فلما أذن لها طلبت إليه في سذاجة وإصرار أن يبعث إلى (الدوفن) بعد ذلك ومعها حرس مسلح، لأنها تريد أن يعهد إليها ولي العهد بالقيادة العامة لجيشه، وبذلك ينفذ ما أمرت به من إجلاء الإنجليز عن بلادها وتتويج ملكها في كنيسة رامس، وقالت جان أن مولاها هارب من السماوات والأرض هو الذي عهد إليها بهذه المهمة الخطيرة. وكان طبيعيا أن يقابل الحاكم هذا الكلام من فتاة في السابعة عشرة من عمرها مقابلة ملؤها السخرية والاستخفاف، فأوصى قريبها بأن يضربها "علقة" طيبة تردها عن هذا الهذيان.

ولكن الخبر انتشر وذاع، ولا بد أن تكون قد أضيفت إليه الحواشي والزيادات التي تلحق بكل خير تتناقله الألسن وتتبادله المجالس، فكثر بين العوام والأوساط في القرون المظلمة الذين آمنوا برسالة الفتاة إيمانا لا يرقى

إليه الشك والجدل، وساعد على انتشار هذه الموجة من الإيمان بالفتاة ما كان يرويه العامة من أن عرافة تدعى (هولان) تنبأت منذ ثلاثمائة سنة بأن فرنسا ستضيعها امرأة وتستردها فتاة من اللورين، فقالوا أن الشطر الأول من النبوءة قد تحقق بما فعلت إيزابيل التي أنكرت شرعية ولى العهد. ولا بد أن تكون جان دارك فتاة اللورين المقصودة في الشطر التالي من نبوءة العرافة، وبينما حاكم "فوكولير" باق على عقيدته في الفتاة، معرض عن الإصغاء إلى أقاصيصها، ساق القدر إليها فتى من الأشراف يدعى "جان دي متز" آمن برسالتها ووعد بمرافقتها إلى الملك أو على الأصح ولي العهد، ولكنها رفضت أن تتخطى مشورة الأصوات التي أمرتها بأن تذهب إلى حاكم "فوكولير" وتأخذ معها حرسا مسلحًا، ثم تذهب لمقابلة الملك ومعها كتاب من الحاكم، فمازالت في إلحاحها حتى كان يوم السبت ١٢ فبراير سنة ١٩٢٤ إذ قصدت إلى الحاكم وأخبرته في لهجة الغضب المقرون بالألم والأسف بأن تعطيلها عن مهمتها قد أدى إلى هزيمة جيوش الدوفن قرب أورليان وأنها علمت نبأ هذه الهزيمة من أصواتها.. ورأى الرجل هنا فرصة طيبة لامتحان الفتاة وتفنيد دعواها بأن يقدم لها ما تريد إذا صح ما أنبأتها به الأصوات من هزيمة جيوش الملك، فلما وصل إلى الحاكم بعد أسبوع نبأ هزيمة الجيوش في نفس اليوم الذى حضرت فيه الفتاة إلى بيتها، وقد أخذ معه قسيسا يفحص روح جان لعلها تخضع لشيطان من الشياطين.

وبعد أن اقتنع الحاكم بنتيجة الفحص أمد الفتاة بما أرادت من قوة وزودها بخطاب منه إلى الملك فبدأت جان رحلتها تحت جنح الليل مرتدية

زي الرجال ومعها حرسها وخدمها وعددهم جميعا خمسة وعشرون ومازالت تختار المسالك الوعرة المنزوية وتؤثر السرى دون سفر النهار تخفيا عن عيون الأعداء حتى وصلت إلى شئون مقر ولى العهد، في ٦ مارس سنة ١٤٢٩ بعد مسيرة عشرة أيام لم تسلم فيها من المناورات، أو مناوشات الأعداء.

وقد حاولت بطانة الدس والسوء التي كانت تحيط بالملك إذ ذاك أن تحول بين جان دارك وبين الظفر بلقائه، فأوفد تلك البطانة أربعة من القساوسة جاءوها في الفندق الذي نزلت به يطلبون إليها أن تسلمهم الرسالة التي تقول أنها تحملها إلى الملك، ولكنها ردتهم بكل ثبات وهدوء قائلة أنها رسالة للملك وحده، فلا بد أن تسلم إليه بشخصه. وتمت المقابلة بعد يومين اثنين، وقد حاولوا أن يضللوا الفتاة اختبارا لحقيقة رسالتها، فأجلسوا مكان الملك شخصا آخر وألبسوا شارل لباسا عاديا لا ينم عن حقيقته، فلما دخلت جان أثارت دهشة الحاضرين بتجاوزها كرسي الملك والجالس عليه واتجاهها إلى شارلي مخاطبة إياه بلقب الملك في يقين وثبات، حتى إذا حاول شارل أن يوهمها بأن الملك هو الذي يجلس على العرش لم تنهض عن ركوعها أمامه وردت عليه قائلة "باسم الله مولاي بل الملك أنت ولا أحد غيرك. أعطني الجند أنقذ أورليان، وأذهب بك إلى رامس حيث تمسح بالزيت المقدس وتضع العاج على مفرقك، وفق مشيئة الله"

وبعد أن أسرت جان في أذن الملك شيئا نالت موافقته ورضاه. ثم أقامت بأمر خاص منه في برج يدعى برج "كوداري" تنتظر بصبر نافد

ساعة العمل الحاسم السريع. بيد أن بطانة الملك أطلقت في هذه اللحظة سهما آخر من سهامها المسمومة، وأخذت تلقي في نفس الملك الضعيف المتردد بذور الشك في أمر جان، حتى اقتنع بإرسال الفتاة إلى براتييه لفحصها والتأكد من أنها لا تصدر في أفعالها عن الشياطين، فلم يسع جان إلا الإذعان على مضض، وهناك في براتييه جلست بين أيدي رجال اللاهوت والقانون يمطرونها بوابل من أسئلتهم المحرجة التي لا تكاد تنتهي، وهي تجيب في صراحة قاطعة وشجاعة فائقة وبديهة حاضرة نادرة فإذا سألوها كيف تحتاج إلى جنود مع أن الله قادر على كل شيء وفي استطاعته سبحانه وتعالى أن يجلي الإنجليز عن فرنسا بغير جنود، لم تدخل معهم في مناقشات دينية حول القدرة الإلهية وكيف أنها لا تتعلق بالمستحيل. ولكنها تجيبهم في سخرية قوامها الحقيقة المرة، قائلة إن الله يعين من يعين نفسه، فعلى الفرنسيين أن ينهضوا بأعباء الحرب والله يمدهم بنصره.

وينتهي التحقيق والفحص بانتصار جان وإعلان القضاة بالإجماع أنها "مؤمنة صادقة الإيمان. كاثوليكية، سليمة العقيدة، ليس في شخصها ولا قولها ما يناقض الدين. وواجب على الملك أن يقبل عونها، لأن في رفضه حرمان نفسه من عون الله".

وعادت في الوقت عينه بعثة الرهبان الذين كانوا قد أوفدوا إلى "دومريمي" للبحث عن نشأة الفتاة وتقصى سيرتها، فجاءت نتيجة هذا البحث قاطعة بأن جان منذ مولدها إلى أن وصلت شنون، طاهرة، شريفة لا يعلق بسمعتها ولا خلقها أدنى شك أو افتراء.

وعلى ذلك أصدر الملك أمره بتعيين جان دارك قائدا عاما للجيوش الفرنسية وإعداد العدة الحربية لمسيرها إلى أورليان وإنقاذها من بين براثن العدو الذي يحاصرها منذ ستة أشهر كاملة أقام في أثنائها الحصون وأرسل يطلب مددا يضاعف من قوته استعدادا لالتهام أورليان، لقمة مستساغة. وقبل أن تبدأ جان طريقها إلى الميدان، أملت بلاغا إلى الجنود الإنجليز تقول فيه.

"... باسم الله آمركم بالعودة إلى بلادكم. فإن لم تفعلوا فحذار من العذراء وستعلمون في القريب العاجل أي أذى ستنزله بكم. خذوها كلمة صادقة مني إنكم لن تأخذوا فرنسا التي أمرها لملك السماء. ابن مارية المباركة وإنما سيحتفظ بها شارل"

وأرسلت جان إلى قواد الإنجليز: سفولك، وتالبوت الجبار، وسكيلز، وغيرهم تقول: "أجيبوا على هذا بأنكم قبلتم الصلح في مدينة أورليان فإن لم تفعلوا فلكم الويل والثبور!".

وقد علق المحامي الإنجليزي المشهور السر جون مكدونل على هاتين الرسالتين، وعلى الرسالة الثالثة إلى الوصي على ملك الإنجليز، ولكن العجيب حقا هو ما تدل عليه من مبلغ ما كان لهذه الفتاة الساذجة. وعمرها سبعة عشر عامًا، من سلطان على العظماء ورجال الدين والجنود المحكمين من رجال السياسة الذين وافقوها على إرسال هذه الخطابات الطافحة بالغطرسة والعجرفة، وفي ذلك ما يدل دلالة مدهشة على مبلغ ارتفاع شأنها وعلو قدرها، بل فيه ما يدل دلالة أقوى من كل الشهادات

التي لدينا على مبلغ ما كان لها من محبة في نفوس العامة وما كان لها من احترام ورهبة في نظر الجنود.

لم يعبأ الإنجليز بهذا التهديد الصبياني فسارت جان إلى أورليان ودخلتها في ٢٩ أبريل سنة ١٤٢٩، بين مظاهر الابتهاج التي يندر نظيرها على مر الزمان وفي الغداة عاودت إنذارها للإنجليز أن يجلو عن وطنها، فلم يكن جوابهم سوى أن أشاروا عليها في سخرية أن تعود هي إلى قريتها ترعى الغنم، لأنهم إذا ظفروا بها سيصلونها عذاب السعير.

إزاء هذا لم يسع جان سوى أن تبدأ عملها الخطير، فسارت إلى الميدان وافتتحت سلسلة انتصاراتها بالاستيلاء على حصن سان لو، وما زالت تتقدم جيوشها إلى النصر من قلعة إلى قلعة وتبث فيهم من إيمانها الإلهي بالفوز المبين وتوقع في صفوف الإنجليز الرعب بشجاعتها الخارقة، حتى استولت على قلعتي سان جون وأوجستنيان، ثم دان لها حصن (لي توريل) بعد معركة جرحت فيها وسقطت تبكي والفرنسيون يقاتلون عنها الإنجليز الذين رأوا في جرحها فرصة للظفر بالساحرة الملعونة التي أنزلت بهم شر الهزائم.

فلما وقفت رحى المعركة نهضت وهي جريحة إلى الحصن فاستولت عليه وفر من كان فيه من الإنجليز وغرق منهم كثيرون. وفي فجر اليوم التالي سحب الإنجليز فلولهم مرتدين عن أورليان تاركين ذخائرهم ومدافعهم نهبا لأهل أورليان الذين انقلب همهم عيدا دونه كل الأعياد.

وسارت جان في ١٠ مايو إلى تورز مقر الملك، حيث استقبلها

الشعب استقبال أعاظم الأبطال، وخف الملك إلى لقائها أحسن اللقاء ورفعها هي وأهلها إلى مصاف النبلاء. وراحت هي تلح عليه أن يطرح جانبا مشورة حاشيته الخائنة. ويصغى إلى توسلها فيذهب معها إلى رامس حيث يتوج ملكا على فرنسا ويمسح عليه بالزيت المقدس، فلم يستجيب إلى ندائها إلا بعد شهر من دخول أورليان. فتقدمت جان بجنودها وبددت شمل الجيوش الإنجليزية في الطريق إلى رامس، وأسرت قائدهم سافر لك نفسه وردت قائدهم الآخر تالبوت على أعقابه لائذا بأذيال الفرار، ثم أسرته وعادت به إلى أورليان، ثم بدأت جان رحلتها مع الملك إلى رامس بجيش عتيد بعدده وروحه المعنوية فلم تلق مقاومة تذكر من بقايا الجيش الإنجليزية، واحتفل بتتويج الملك ومسح رأسه بالزيت كما أرادت جان إذاعانا لأصواتها.

إلى هنا كانت رسالة جان دارك قد تمت، وكان عليها مادامت قد نفذت (أصواتها) وعملت بوحيها أن تعود إلى بلدها، مكرمة مبجلة في الحياة والممات. ولكنها بقيت لأمر ما دون استشارة أصواتها. واستصدرت من الملك أمرا بالزحف على باريس. فسارت هي على رأس الجيش ومعها الملك نفسه ومستشاره الخائن "لاتريموي" ولكن ضعف الملك ووقوعه في حبائل الدس التي نصبها له مستشاره جعلاه يعقد مع دوق برجندي هدنة لمدة خمسة عشر يوما تسلم له باريس على أثر انقضائها بغير ما حرب أو نضال. فلم يسع جان إلا أن تقبل على مضض ما قاله ما قاله ملكها حتى لا تعرض كلمته وكرامته للمهانة. فلما انتهت مدة الهدنة أصدرت جان أمرا باستئناف الزحف على باريس، وتخلف الملك عنها لفرط جبنه وخور

عزيمته، وسارت هي وحدها على رأس الجيش حتى بلغت سان ديني في ٢٦ أغسطس سنة ١٤٢٩. وهناك أرسلت تلح على الملك في موافاتها إلى هذا الموقع واضطرت إلى انتظاره هناك حتى وصل بعد أسبوعين؛ فكان هذا التأخر كسبا للوقت استعان به الإنجليز في تقوية أنفسهم وتجديد نشاطهم.

فلما استؤنف القتال سقطت جان جريحة، وحملها زميلاها القائدان المخلصان دالنسون وجانكور بعيدا عن المعركة خوفا على حياتها وأرادت هي في اليوم التالي استئناف القتال وصم جرحها، فإذا الملك قد انصاع من جديد لمكائد مستشاره لاتريمون، ووقع هدنة أخرى يرتد بمقتضاه الوزراء في مقابل وعود عابثة.. وقع ذلك من نفس جان أسوأ وقع، وطلبت إلى الملك إعفاءها من أعباء القيادة العامة، فأبى عليها ذلك بحجة أن الهدنة لا تمنع الانتفاع بخدماتها في ميادين غير التي نص عليها في الشروط.

ولم تكن (الأصوات) قد انقطعت عن الاتصال بجان دارك، وإن لم تكن هي التي أوحت إليها بما كان منها بعد التتويج، فأشارت عليها في هذا الموقف بأن تبقى في سان ديني. ولكن الملك أبى عليها إلا أن ترافقه، ولم تكن تستطيع المقاومة وهي جريحة إذا احتاج الأمر أن تقاوم بالقوة فلم يسعها سوى الانصياع لأمر الملك ومخالفة أصواتها لأول مرة مخالفة صريحة.

ولكن جان لم تطق صبرا على خطة الملك الذي كان قد سرح الجيش وانصرفت حاشيته إلى اللهو والعبث، فقررت أن تقاتل العدو بفرق من المتطوعين وانضم إليها في ذلك صديقها القائد دالسنون وبدا على جان

شيء من الشك في نجاح هذه الحملات المرتجلة على الأعداء، فجاءتها الأصوات مصدقة لما في صدرها من وساوس واخبرتها في أبريل سنة ١٤٣٠ بأنها ستقع في الأسر قبيل عيد القديس يوحنا وعليها أن تتقبل هذه المحنة بالرضا والثقة في عون الله.

وصحت النبوءة وأسرت جان على مقربة من كومبين في الوعد الذي ضربته الأصوات وقد ظل "جين دي لوكسمبرج" أياما ينتظر فداءها من شارل السابع، لكن شارل تركها معرضا عن صيحة أستاذه في طفولته (جان جيدو) أن لا يدخر جهدا في إنقاذها، فلما اتصل بها وأرسلوا صنيعتهم "كوشون" أسقف بوفيه يساوم جين دي لوكسمبرج على شرائها؛ فنجح في مهمته وابتاعها بثمن قدره عشرة آلاف من الجنيهات جمعها الإنجليز من الفرنسيين نفسهم، وعندئذ حاولت جان الفرار بإلقاء نفسها من نافذة قلعة بوريفرار، وقد نفذت هذه المحاولة رغم نصيحة (الأصوات) لها بألا تفعل. وكانت النافذة على ارتفاع ستين قدما من سطح الأرض فسقطت المسكينة فاقدة الرشد وأعادوها إلى غرفتها بالقلعة حيث استردت صحتها بعد أيام، ونقلت جان بعد ذلك من قلعة إلى قلعة أسيرة في أيدي الإنجليز حتى ألقيت آخر الأمر في روان بقلعة فيليب أوجست، مكبلة بالأغلال مصفدة بالسلاسل في عنقها ووسطها محبوسة في قفص من الحديد خمسة أشهر كاملة!.

قدمت جان بعد ذلك إلى المحاكمة أمام إحدى محاكم التفتيش الدينية، بتهمة الإلحاد والزندقة والسحر والارتداد، ونحو ذلك من التهم الملفقة التي اخترعها الإنجليز، وعهدوا إلى صنائعهم من المرتشين وذوي المطامع

ومرضى النفوس بتكييف كل تهمة منها مهما يكلفوا أنفسهم من شطط وعسف وعدوان..

وواجهت جان وهي فتاة لم تتم عامها التاسع عشر، هيئة من رجال الدين وأعوانهم بلغ عددها نحو خمسة وتسعين شخصا، على ما جاء في كتاب السر جون (المحاكمات التاريخية) وقد انتهت هذه المحاكمة الأولى بالحكم على جان دارك بعد جلسة مرهقة طويلة بالسجن المؤبد وهو أقصى حكم يبيحه قانون في اللحظة الأخيرة بعد أن أخذ منها الإرهاق كل مأخذ.

وكانت بعد ذلك مهزلة إبدال هذا الحكم بحكم الإعدام حرقا بدعوى أن جان نكثت عهدها بعدم العودة إلى ارتداء زي الرجال، والحق الذي لا يخفى هو أن الاعدام كان أقل حكم برضاه الإنجليز لجان دارك وقد صرحوا بذلك قبل صدور الحكم وهاج هائجهم حين حسبوا حكم السجن المؤبد نهائيا. فلو لم تكن جان قد عادت إلى زي الرجال لما عدموا ألف سبب وسبب لإشباع شهوتهم إلى الانتقام من خصيمتهم الشريفة على أفظع الصور وأبعدها عن معاني العدل والرحمة والإنسانية.

وغني عن البيان أن هذه المحاكمة رغم مظهرها الديني كانت محاكمة سياسية من الألف إلى الياء، وأنها بحذافيرها من تدبير الإنجليز ومن مفضوح المغالطات أن يحاول رجل مثل برناردشو أن يثبت أن السياسة لم تتطرق إلى هذه المحاكمة في قليل ولا كثير! وأمعن في المغالطة والتبجح أن يختتم اللورد بركنهد الفصل الذي عقده عنها في كتابه (أشهر المحاكمات) بقوله أن

مصرع جان دارك سيظل إلى الأبد وصمة في جبين الفرنسيين!

***

وقد درست قضية جان دارك من جديد في سنة **١٤٤٩** وبعد ست سنوات ونيف بدئ نظرها أمام محكمة دينية في كنيسة نوتردام، بناء على التماس من أمها التي كانت قد بلغت السادسة والسبعين من عمرها وفي ٧ يونيو سنة **١٤٥١** قررت المحكمة اعتبار التهم التي بني عليها الحكم الأول باطلة واعتبار المحكوم عليها في عداد الشهيدات وفي سنة **١٩٢٠** أي بعد أكثر من أربعة قرون ونصف على هذا الحكم أعلنت الكنيسة قداسة "عذراء أورليان".

الشباب الخالد

جاك لندن

ولد في نيويورك من سفاح في ١٢ يناير ١٨٧٦ وعانى منذ طفولته ألوان الحرمان وأحب المغامرة ... فاشتغل صيادا، ثم بحارا، وكسب كثيرا وأنفق أكثر مما كان يكسب، وتعرضت حياته لأهوال لا يقوى عليها إنسان عادي.. كان حظه من العلم قليلا إلا أن مواهبه تفتحت في النهاية عن لون من القصص الرائع الذي اهتزت له وأقبلت عليه أمريكا وأوروبا وذاع صيته ككاتب روائي ليس له مثيل. وبالرغم من شهرته لم ينس طبيعة المغامرة، ولم يكف عن الأسفار في البحار حتى وافاه الموت وهو في جزر هاواي في ٢١ نوفمبر ١٩١٦.

توماس تشاترتون

ولد في ٢٠ نوفمبر ١٧٥٢ في مدينة برستول بإنجلترا، وظهرت آيات نبوغه وهو في الثامنة من عمره، وعندما مات والده ورث عنه ذخيره من الكتب والمحفوظات النادرة، كان لها الفضل في تفجر ينابيع شاعريته، وقد انتشرت قصائد تشاترتون التي أضافت إلى الأدب الإنجليزي آيات خالدة إلى الأبد ولم يجد الشاعر الحياة ممهدة له كما كان يؤمل، فظل يقاوم حتى يئس في النهاية بعد نضال عنيف، وأوصد باب غرفته على مخطوطاته فمزقها ونثرها في أنحاء الغرفة وتناول جرعة من الزرنيخ وضع بها حدا لحياته المملوءة بالأهوال والجحود.

أحمد عبد العزيز

إن صورة البطل أحمد عبد العزيز، مرسومة في قلوب شباب وفتيات هذا الجيل، وسوف تظل إلى أمد بعيد واضحة المعالم، لأنها صورة رائعة لشهيد كبير، مات في أكرم ميدان، بعد أن سجل اسمه بين أبطال تاريخ مصر الحديث. لقد كان أحمد عبد العزيز أول شاب مصري دخل أرض فلسطين لتحريرها من عصابات إسرائيل، وكم أصلت نار مدفعيته أعداء العروبة، وكم أبادت وأفنت وشتت من شملهم، وكانت أمنيته أن يموت شهيدا؛ فحقق الله رجاءه، ومات الجندي الباسل في أكرم ميدان!

شيلر

ولد شيلر الشاعر والفيلسوف الألماني يوم ١٠ نوفمبر ١٧٥٩ في مدينة مارباخ ، درس القانون والطب ولكنه نبغ في التأليف، وقد كتب وهو لا يتجاوز العشرين مسرحيات دراماتيكية لاقت نجاحا وإقبالا، وكان لها تأثير لا يقل عن مسرحية "جيته"، في جمهور قرائه. وفي يوليو ١٧٨٣ عين شاعرا المسرح "مانهيم".

واشتغل شيلر بالتاريخ أيضا وعين استاذا له بجامعة "ينا" وعندئذ انصرف إلى الفلسفة وانكب على دراستها وترك مؤلفات يباهي بها الزمن. وتزوج شيلر وهو في الثلاثين ولم يمض على زواجه عام واحد حتى مرض واختطفه الموت!.

جينمر

ولد جورج جينمر في باريس يوم ٢٤ ديسمبر ١٨٩٤ أغرم بحب

الميكانيكا، وتعلم الطيران وبرع فيه، واشترك مع الجيش الفرنسي في معارك ضد ألمانيا أثبت فيها بطولته وهو لا يتجاوز العشرين، وأنعمت عليه الحكومة بالأوسمة، وهتفت له الجماهير وظلت مغامراته حديث العالم، حتى لقي مصرعه في معركة جوية بمنطقة الفلاندر، وهو في الثالثة والعشرين.

الفهرس